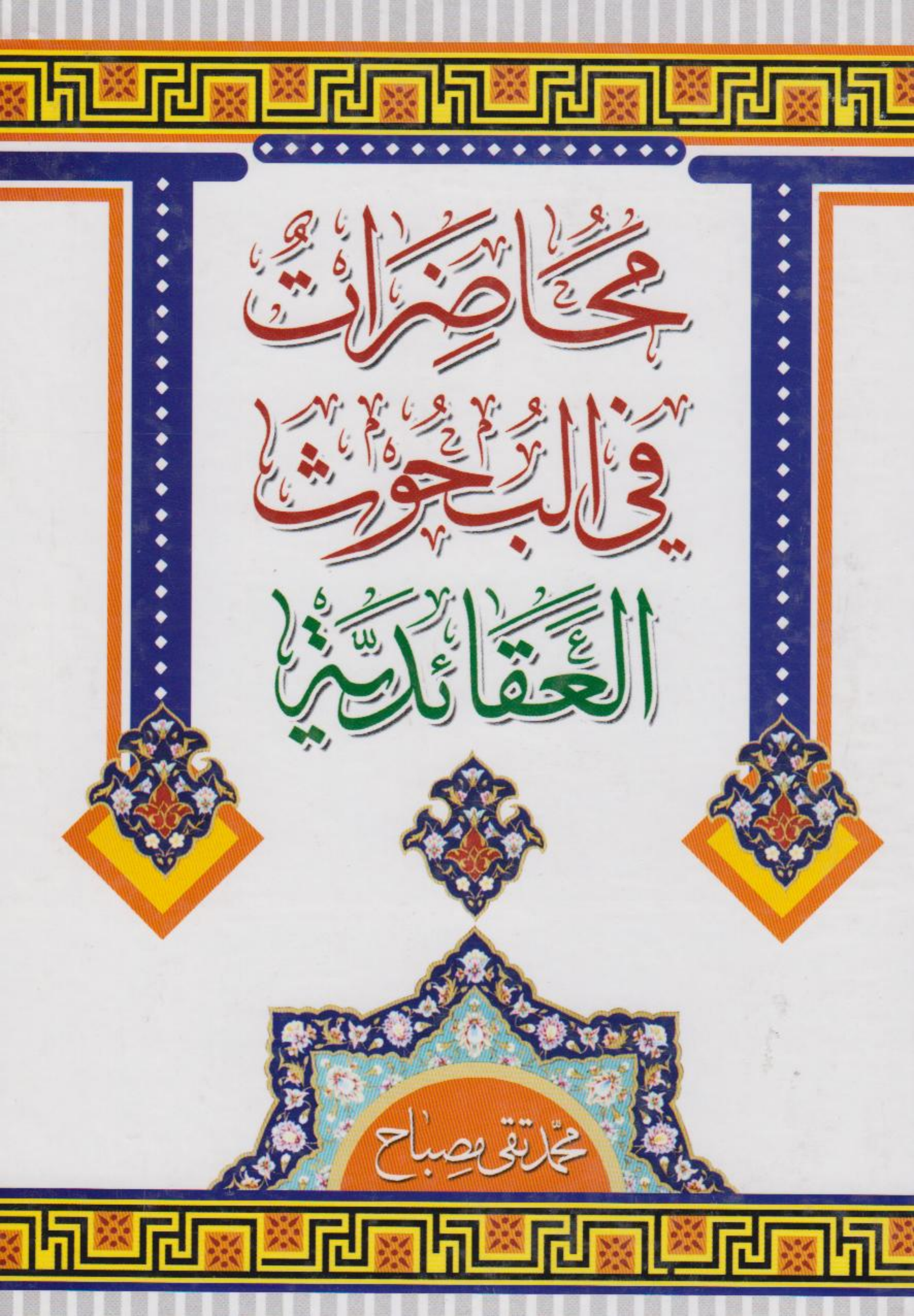

محاضرات
في البحوث
العقائدية
محمّد تقي مصباح


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

٢٨ مُحَاضَرَة

في البُحُوثِ العَقَائِدِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ

تأليف

الأستاذ الشيخ محمد تقي المصباح

نقله الى العربيّة

رضا صفوي زاده



انتشارات ذوی القربی

◘ نام کتاب:	محاظرات فی البحوث العقائدیة ◘
◘ مؤلف:	محمد تقی مصباح ◘
◘ ناشر:	ذوي القربی ◘
◘ نوبت چاپ:	الأولیٰ ◘
◘ تاریخ چاپ:	١٤٢٦ ◘
◘ تیراژ:	٣٠٠٠ ◘
◘ چاپخانه:	دفترانتشارات اسلامی ◘
◘ شابک:	٩ - ٦٣ - ٧٩٩٧ - ٩٦٤ ◘

مرکز پخش: قم ـ پاساژ قدس ـ طبقه اول ـ پ ٥٩ ـ تلفن: ٧٧٤٤٦٦٣ ـ ٢٥١ ـ ٩٨+

عراق ـ نجف الأشرف ـ سوق الحويش ـ همراه: ٠٧٨٠١٠٠٣٥٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ مؤسسة البعثة تشتمل على عدّة أقسام علميّة ومن أهمّها قسم الدّراسات الاسلامية الذّي يعني بتحقيق مصادر التراث الإسلامي وقد استطاع إلى الآن إخراج المزيد من الآثار إلى عالم الطبع والنشر، وكان من بينها تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني في عشرة أجزاء وتفسير العياشي في ثلاثة أجزاء وتفسير آلاء الرحمن في مجلدين والافصاح للمفيد ودلائل الامامة للطبري ومجمع البحرين للطريحي في ثلاث مجلدات وغير ذلك من كتب التفسير ويليه في الأهميّة.

قسم ترجمة المتون الاسلامية وهو واحد من الأقسام التابعة إلى مؤسسة البعثة أيضاً، وقد بدأ العمل منذ انبثاق الثورة الاسلامية في ايران وقد وصل عدد اللغات التي عمل على ترجمتها إلى ثماني عشرة لغة مختلفة وكانت اللغة العربية تقف على رأس قائمة تلك اللغات ويتمتع القسم العربي بسعة اكثر، وله اصدارات ونتاجات متعددة، كان من جملتها تفسير الامثل الذي ترجم من الفارسية إلى العربية وطبع في بيروت في عشرين مجلداً من قبل مؤسسة البعثة. وقد اعربت منشورات ذوي القربى بادارة السيد يعقوب الموسوي حفظه الله عن استعدادها لطبع ونشر آثار هذه المؤسسة وقد اجزنا له ذلك شريطة أن يكون كل اثر يطبعه، وفقاً لاتفاق خاص بين هذه المؤسسة ومنشورات ذوي القربى يلاحظ فيها (حفظ حقوق المؤسسة).

نسأل الله تعالى أن يتفضّل على جميع الاخوة الذين يبذلون الجهود على طريق توسيع وانتشار الثقافة الاسلامية بالأجر الجزيل والرحمة الواسعة، إنّه سميع الدعاء.

مؤسسة البعثة

ايران ـ قم

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القارىء

الكتاب الذي بين يديك هو قسم من البحوث العقائدية والأخلاقية للأستاذ محمَّد تقي مصباح اليزدي، والتي أوردها في سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وخمسين هجري - شمسي في مدينة قم المقدَّسة.

ولأن هذه البحوث كانت مفيدة للجميع وخاصة لطلاب الجامعة، فلقد بادرت مؤسسة (في طريق الحق وأُصول الدين) بالاتفاق مع الأستاذ المؤلف إلى طبعه. آملين بعد إعلان شكرنا للمؤلف أن نضع قدماً في طريق إصلاح جيل الشباب وهدايته وإرشاده.

مؤسسة في طريق الحق وأُصول الدين

المحاضرة الأولى

خلق الإنسان بهذه الصورة المادية والدنيوية، لكي يتكامل ويصل إلى السعادة النهائية التي قُدِّرت له بصورة تدريجية.

ويجب أن تتحقق هذه الكمالات بواسطة الأفعال والممارسات التي يقوم بها الإنسان. بعبارة أُخرى: إنَّ التكامل المعنوي للإنسان يختلف عن التكامل المادي لبقية الموجودات الطبيعية التي تنمو وتتكامل قهراً دون إرادة.

إنَّ الحياة الدنيا ـ في الواقع ـ هي مقدمات، وتعتبر أرضية لتُعرض فيهـا القـابليات إلى الميدان العمـلي. فيستطيع الإنسان ـ بحكم كونه مختاراً ـ أن يحقق السعادة أو الشقاء لنفسه. وقرينة الإختيار هي أن يكون هناك طريقان ليختار أحدهما، وإلّا فسوف لن يكون لهذا الاختيار أيّ معنى.

وهناك شروط يجب توفرها لكي نتمكن من تحقيق الإختيار

والانتخاب:

١ـ يجب أن يعرف الهدف، بمعنى أن يعرف الإنسان نهاية الطريق الـذي يسلكـه، لأنَّ الإختيار يكون عندما يكون هناك هدف وطريق يوصله إلى ذلك الهدف لكي يختاره.

٢ـ أن يعـرف الطريق، وهو أن يميّز الطريق الذي يوصله إلى الهدف الذي اختاره.

٣ـ أن يحمـل معه وسائل السفر، لأنَّ وسيلة السفر تختلف تبعاً للبعد والقرب، وطبيعة الطريق، وظروف المنطقة جغرافياً...وإلى آخره.

إنَّ للإنسـان هدفـاً وهو (الحياة السعيدة الخالدة) ولكن ما هو الطريق الذي يؤدي إلى هذا الهدف؟

وما هي مستلزمات هذا السفر؟

فإذا كان سبق لك أن ذهبت إلى مكان ما، فمن الطبيعي أنَّك ستعرف بُعد الطريق وما يحتاج الذهاب إليه.

ولكننا نعيش في عالم لازلنا في وسط الطريق. فإذا أردنا أن نجرّبه فليست لدينا فرصة للرجوع والبدء من جديد. فإنَّ الكثير من بعد ما يرون اليوم الآخر يريدون الرجوع إذ يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحَاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[١].

ولكن الجواب هو: ألم يخبركم الأنبياء بأن لا رجعة بعد ذلك؟

(١) السجدة: ١٢.

ألم يتمّوا الحجّة عليكم؟

إنّ الله قد خلقنا للآخرة، وهل يصدّق أحد من الناس أنَّ عاقلاً يدعو أحداً إلى مكان ما، ولا يبيّن له طبيعة ذلك المكان، والطريق الذي يؤدّي إليه؟

إنَّ الله الحكيم الذي دعا عباده لنيل رحمته ونعمته المتمثّلة بالسعادة الأبدية الخالدة، هو الذي أوجب على نفسه الرحمة بأن دلّنا على الطريق إلى هذه السعادة الخالدة، وإلّا فمن أين لنا الدليل للوصول إلى هذا الطريق؟

فمن الممكن أن يدّعي أحد أنّ الله يرشد الإنسان إلى السعادة بواسطة العقل، ومن الطبيعي أن العقل ـ إلى حدٍّ ما ـ يستطيع تمييز الصالح من الطالح، ولكن العقل هو أحد الطرق إلى الهدى والإستقامة، فهل يمكن معرفة كل شيء عن طريق العقل وحده؟

إنَّ المسائل العقلية عادةً نتوصَّل إليها عن طريق الاستعانة بالتجربة، وخاصة فيما يتعلَّق بالحياة العملية.

فحينما لا تتوفر التجربة حول موضوع ما، أو لم نكن نتابع نتائج وآثارعمل ما، فكيف يمكن للعقل أن يكون هو المقياس والسبيل في هذه الحال؟

إنّ العقل يمكنه أن يدرك أنَّ العدالة إذا لم تتحقق في مجتمع من المجتمعات، فإنَّ ذلك المجتمع سوف ينهار ويسير نحو الفناء والزوال.

ولكنّه لا يستطيع أن يدرك جزئيات ودقائق الأمور، وخاصة مسألة ربط الدنيا بالآخرة والعلاقة بينهما، وكيفية تأثير أعمال الإنسان على سعادته الأخروية.

إنّ العقل يدرك أنّ الإنسان يجب أن يكون خاضعاً لله، ولكنه هل يستطيع أن يدرك مسألة صلاة الصبح يجب أن تكون ركعتين؟

إذن فالعقل يمكنه أن يدرك قاعدة عامة، ولكنه لايستطيع الإلمام بدقائق وظروف وجزئيات هذه القاعدة.

لنفرض أنّ العقل يستطيع أن يعرف أنّ الصيام مفيد، ولكنه لا يمكن أن يعيّن أوقاته وما يتعلق بكيفية تطبيقه، ولماذا يكون في النهار؟ ولماذا يكون في ساعات محدّدة؟ ولماذا يجب الإمساك عن أمور معيّنة حتى في الجوانب الاجتماعية؟

فالإنسان منذ أن بدأ مسيرته البشرية، كان يسعى دائماً لتحقيق السعادة عن طريق وضع قوانين وقواعد لذلك. ولكن التأريخ لم يشهد قانوناً بشرياً نال رضا الجميع، رغم التقدُّم والتطور الذي توصل إليه الإنسان المعاصر.

فبعد التصويت على قانون ما تطرأ عليه تغييرات وتعديلات مباشرة، ويتبين بعد ذلك بفترة قصيرة أنّ هذا القانون لا يمكن العمل به أصلاً.

إنّ الإنسان الذي فشل في وضع قانون لهذه الحياة المحدودة

الزائلة، رغم كل هذا التقدّم والتطور في العلوم، كيف يمكنه وضع القوانين للحياة الأخروية الخالدة؟!

بناءً على ذلك فالعقل وحده لا يستطيع وضع قوانين تضمن للإنسان سعادته الأبدية، ولابد أن تؤخذ من الله سبحانه وتعالى واضع القوانين والسنن وعن طريق الوحي، ولكن جميع الناس لا يمكنهم الإتصال بالوحي، وهذا الإتصال يحتاج إلى إدراك رفيع واستعداد وقابلية معيَّنة لا توجد عند كل إنسان، لذلك فإن الله سبحانه يختار أفراداً معينين ينزل اليهم الوحي ليبلغونه لجميع الناس.

لذلك تقتضي الحكمة الإلهية أن يرسل الله رسلاً مبشرين ومنذرين للناس، من أجل تكاملهم ورفعتهم، وهذا ليس من اختصاص العقل، فاللذين يضعون القوانين هم أنفسهم يعجزون عن إدارة شؤونهم الخاصة في هذه الحياة، فكيف يدّعون وضع قوانين شاملة لكل العالم.

قلنا: إنّه ما دامت القوانين البشرية (الوضعية) حصيلة التجارب والإدراكات الإنسانية، فليس هناك ضمان لصحتها، ومن المحتمل أن يتبين عدم صحَّتها بعد مدَّة قصيرة من الزمن.

فقبل حوالي ثلاثين عاماً وضعوا قانون الحرية الجنسية للمرأة والرجل وقاموا بتدريس المسائل الجنسية في المدارس، حتّى وصلت الحالة إلى فساد لا يُطاق، وبعد أن أعطى هذا الإجراء نتائجه السلبية السيئة، قام المجلس بتشكيل لجنة لدراسة أسباب هذا الفساد، فكانت التقارير

المعطاة من قبل هذه اللجنة تشير إلى ان ا... الذي وضع قبل ثلاثين عاماً هو السبب في الفساد، ولو عملنا عشرين عاماً لإصلاح وإزالة هذا الفساد الـذي انتشر في هذا المجتمع لما استطعنا، لأنَّ جيلاً قد فسد وانحرف عن الطريق، ومن أجل التوصّل إلى العفّة والنَّزاهة ينبغي أن نسعى قروناً من الزمن في تربية هذا المجتمع كي تتوارث الأجيال الجديدة العـادات والأخـلاق الحسنة، وسوف يقع ذنب هذا الفساد على عاتق واضعي مثل هذه القوانين، ولن تستحكم القوانين والمثل الأخلاقية إلّا بعد قرون من الزمان.

هذه حصيلة القوانين البشرية المحدودة في التزاماتها، والتي تنطلق من زاوية ضيّقـة ولا تأخـذ جميع العـوامـل والمسببات بنظر الإعتبار، وبإختصار: إنّنا إذا أردنا أن نفهم ما هو الإرتباط بين هذا العالم والعالم الآخر؟ وكيف يمكننا التوصّل إلى السعادة الاخروية الخالدة؟ فإنّه ليس لدينا طريق إلّا الوحي.

فما هي حقيقة الوحي؟

كذلك يجب أن ندرك أنّه ليس لدينا سبيل لمعرفة ذلك، لأنّنا لا نجد له نموذج في كياننا وحياتنا الدنيوية، كما أنَّ الذي يولد وهو أعمى لا يستطيع تمييز اللون الأخضر مهما حاول وضغط على نفسه، فإنّنا لا نستطيع إدراك شيء إذا لم يتوفر لدينا مثيل له، يقول الله سبحانه وتعالى

﴿يُنزِّلُ المَلائِكَةَ بالرُّوْحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[٢].

ولكن ما هي الملائكة؟ وكيف تأتي بالوحي وتنزله على الأنبياء؟

كيف تتكلَّم؟

كيف يتعلَّم جبرئيل من الله؟

كل ذلك لا نعرف عنه شيئاً، لأنّنا لم نر له نموذجاً في حياتنا، ولكن مجرد عدم المشاهدة ليس دليلاً على عدم الوجود، فالعقل يقول إنَّ الحكمة الإلهية تستوجب أن يرسل الله أشخاصاً لهداية وإرشاد الناس، لكي يسعد الناس عن طريق الحصول على العلوم التي أوحى بها الله إليهم بواسطة الوحي.

(٢) النحل: ٢. الشعراء: ١٩٣. البقرة: ٩٧ وآيات غيرها.

المحاضرة الثانية

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾[1].

من المعلوم أنَّ الحياة الدنيا بهذه المشاكل والمصاعب والمعاناة العظيمة واللذائذ الزائلة، والظلم والحرمان الذي لا يُحصى، لا يمكن أن تكون هدفاً للإنسان، ولو فرضنا أن الله خلق الموجودات والكائنات لأجل هذه الحياة المادية الزائلة لا لغيرها، فإنَّ ذلك من العبث وبلا مبرر، ولكن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً.

والذين فكروا بهذه الصورة من التفكير، توصلوا إلى أنَّ العالم مُضمحلٌ وزائل ولا يرتكز على أساس قوي، من أمثال الهيبيين وغيرهم.

ولكن لو وجدت هناك حياة بعد هذه الحياة، وأن يكون وجود هذه الحياة مقدّمة لتلك الحياة الآخرة، فسوف يكون هناك معنى حقيقي لهذه

(1) الإنسان: ١.

الحياة الـدنيوية الزائلة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[٢]، إنَّ الله لا يخلق شيئاً عبثاً، فالحياة المادية ليست هي الهدف الأساسي بل هي وسيلة للوصول إلى هدف وغاية أعلى وأسمى.

والوصول إلى هذا الهدف ـ أي الوصول إلى السعادة الخالدة ـ يعتمد على الأعمال الاختيارية. فالإنسان بواسطة أعماله الإرادية يستطيع أن يجعل منزلته أسمى من الملائكة أو دون مستوى البهائم، لذا يجب أن تكون هناك مفترقات طرق، لكي يستطيع الإنسان أن يختار أحدهما، فمن أجل اختيار الطريق الذي يوصل الفرد إلى السعادة الأبدية،فإمّا أن يكون قد أدرك هو بنفسه ذلك الهدف، أو أنَّ شخصاً واعياً مطّلعاً يدلّه عليه، وبدون ذلك فليس هناك ضمان للوصول إليه.

من البـديهي أنَّنا نطوي الطريق إلى الحياة الأبدية، فيجب أن يدلنا عليه مَن كان له الإلمام بهذه الدنيا وتلك، ولا يكون ذلك إلّا الله سبحـانـه وتعالى. فالعقل يستطيع أن يدرك أموراً عامَّة، ولكنه لا يُبيّن التفاصيل في طريق السعادة. فمثلاً يدرك العقل ويتقبَّل القاعدة القائلة (إنَّ الخالق يجب أن يُعبد) ولكنه لا يستطيع تعيين تفاصيل تلك العبادة، أي انّه لا يستطيع التوصّل إلى أنَّ صلاة الصبح يجب أن تكون ركعتين، وليس أكثـر أو أقـل من ذلك، وإذا وقع في أجزائها خلل صغير فإنّها ستكون باطلة.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

إذن نستنتج أنَّ الحكمة الإلهية يجب أن تُبيِّن وتوضح للإنسان سبيل السعادة، عن طريق قوة فوق قوة إدراك العقل البشري وهي (الوحي).

إذن كيف يدلّنا الله طريق السعادة؟

من البديهي أن هناك أفراداً تتوفّر فيهم الشروط، وهي شروط نزول الوحي عليهم، ولا تتوفَّر في غيرهم من البشر، فالله يختار أولئك لكي يقوموا بإرشاد الناس وهدايتهم إلى الطريق.

لنرى كيف يمكننا تصديق شخص إدَّعى نزول الوحي عليه؟ هناك شرطان يجب توفّرهما:

الشرط الأول: هو أن تكون له علامة من الله سبحانه وتعالى. فإنك إذا أرسلت أحداً في أمرٍ، فإنك سترسل معه علامة، فالأنبياء كذلك يجب أن تكون لهم «معجزة» لكي يقتنع الناس ويصدّقوا برسالاتهم.

إنَّ هدف المعجزة ليس المنفعة المادية،بل للتعرّف على رسالة الأنبياء والتصديق بها.

فلو جاء أحد الناس لنبيّ زمانه وسأله: ما هي معجزتك؟

فإنه يقول: إنني أصنع شيئاً يعجز عنه البشر. فمثلاً أُحيي الموتى، أو أعيد البصر إلى الأعمى.

فالنبي موسى(ع) لديه «اليد البيضاء» و«العصا» التي تنقلب إلى ثعبان بإذن الله وبصورة تبطل معها شعوذة السحرة، بحيث يقتنع السحرة

أنَّ هذا العمل ليس من السحر أبداً.

إنَّ الأنبياء في جميع الأزمنة كانت لهم معاجز من الله، وبعض منها كان يقترحها الناس أنفسهم، كقوم صالح الذين اقترحوا أن يُخرج لهم ناقة من الجبل، وأخرج لهم النبي صالح(ع) ناقة من بطن الجبل بأمر الله.

والبعض الآخر كان يقوم بها الأنبياء أنفسهم دون طلب مُسبق من الناس، فمثلاً كان يقول النبي عيسى(ع): أُخلقُ من الطين كهيئة الطير، وأُحيي الموتى وابصر الناس بعد أن يولدوا عمياً من بطون أُمهاتهم وأُبرىء الأكمه والأبرص،وجميع ذلك كان بإذن الله.

نشير هنا إلى أنَّ القيام بهذه الأمور-بإذن الله-ليس له تعارض مع أصل التوحيد، وبناءً على ذلك فإنَّ الأئمة(ع) بإمكانهم أن يُحيوا الموتى بإذن الله ويبرئوا المرضى، وإذا نسبت مثل هذه الأُمور إليهم فليس ذلك من الكفر، ولا تتعارض مع التوحيد. ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئَاً مَذْكُوراً،إنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعَاً بَصِيراً،إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرَاً وَإِمّا كَفُوراً**﴾[٣].

إذن فالطريق الوحيد الذي نطمئن أنّه يُوصلنا إلى السعادة هو طريق الأنبياء، لأنَّ الطرق الأُخرى ليست لها ضمانات، وهي عاجزة عن أن تُوْصلنا إلى طريق السعادة.

ولكن الذي جاء به الأنبياء هو صادر من الله الذي ليس لعلمه

(٣) الإنسان: ١ ـ٣ـ.

وحكمته وقدرته حدود ولا نهايات، ولا يجد الخطأ والزلل والنقص سبيلاً إلى أمره. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٤].

والشرط الثاني: هو أن يكون النبي معصوماً، وإلّا فلا يمكن إتمام الحجّة على الناس، ولكن بوجود النبي المعصوم الذي قد أعطى الضمان على كلامه، فإن الحجَّة قد تمَّت على الناس ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٥].

إذن يجب أن نسعى للحصول على نص كلام النبي، وأن نطلب توضيح الكلام منه شخصياً ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٦].

طريق معرفة الدين ينحصر بكلام الله ورسوله وأوصياء الرسول، فإذا سلكنا طريقاً آخر ووقعنا في الزلل والخطأ فلا نلوم إلّا أنفسنا. ولا يمكن معرفة الدين والمذهب عن طريق علم الرمل والإسطرلاب، أوعلم النفس، أوعلم الإجتماع.

(٤) النجم: ٣.

(٥) النساء: ١٦٥.

(٦) النحل: ٤٤.

المحاضرة الثالثة

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[1].

إنَّ الله لم يخلق الإنسان لهذه الحياة الزائلة المحدودة، وإذا كان هذا هو الهدف وحده فالحياة ستكون تافهة ولا قيمة لها، بل تكون عبثاً أيضاً. فهذه الحياة الدنيا هي مقدّمة للحياة الأُخرى الأبدية، وبما أنَّ الوصول إلى الحياة الأخرى ونيل السعادة الأبدية، يعتمد على الأعمال التي يختارها الإنسان بإرادته، فيجب معرفة الطريق ومعرفة الوسائل اللازمة لسلوك ذلك الطريق.

ولا يكفي العقل وحده لمعرفة الطريق، فالعقل عاجز عن معرفة الأُمور التي لا تتوفر عنده مقدّماتها، ولذا يبعث الله أُناساً لهم قوة إدراك ما فوق العقل، وأن يكون لهم ضمان من الله لكي يتمكّن الإنسان من خلال ذلك أن يتبيّن له طريق السعادة ويصدّق به.

(١) البقرة: ٢٣.

إننا الآن نعيش في زمان بحيث لا يمكننا أن نتّصل بالنبي مباشرة ونأخذ منه الوحي الإلهي، فليس لدينا سوى القرآن، وهذا الكتاب يصرح بأنّه صدر من الله ونزل على النبي محمد(ص)، وأنّ محمداً(ص) ظهر في مكة وعاش في المدينة، وأنّ هذا الكتاب هو منهاج حياة الإنسان حتى زوال هذا العالم كلّه.

إنّ العدو والصديق يقول: إنّ هذا الشخص كان موجوداً حقاً، وقد جاء بهذا الكتاب من عند الله، ولكننا لو حدث لنا الشك في أنّ هذا الشخص الذي اسمه محمد(ص) كان له وجود أم لا، وكان إدعاؤه صحيحاً أم لا، فأين سيكون الجواب؟ فهل يستطيع الكتاب نفسه أن يثبت صحة ما ادعاه هذا النبي(ص)؟

من أجل إثبات صحّة هذا الكتاب، فإنّ النصوص الموجودة في الكتب السماوية وأخبار الأنبياء الماضين كافية لذلك.

كما أنّ الكثير من علماء بني إسرائيل قد توصّلوا لمعرفة نبي الإسلام محمد(ص) عن طريق هذه الأخبار وبشارات التوراة والإنجيل، وآمنوا به قبل أن يظهر.

﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾[٢].

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[٣].

ولكنّنا إذا أردنا أن نغضّ النظر عن هذه الحقائق التأريخية، فهل

(٢) الشعراء: ١٩٧.

(٣) البقرة: ١٤٦. الأنعام: ٢٠.

يستطيع الكتاب نفسه أن يثبت حقانية النبي؟ لقد دعا القرآن مخالفيه منذ أربعة عشر قرناً أن يأتوا بكتاب مثل هذا القرآن، أو أن يأتوا بعشر من مثله، أو حتى سورة واحدة كسورة (الكوثر) والتي لا تتعدى أن تكون سطراً واحداً.

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[٤].

ودعا القرآن أن يأتوا بالناس شهوداً، ولكنه أنذرهم بأن لو لم يأتوا بتلك (السور والآيات) فليحذروا النار التي وقودها الناس والحجارة.

إنَّ هذا البيان يجعل الطرف المقابل يتحرَّك في سبيل المجابهة، وخاصَّة عندما يناديهم بأنهم «لن يستطيعوا القيام بهذا العمل أبداً».

﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٥].

كما حاول المشركون عن طريق صرف الأموال وإشعال نار الحروب القضاء على الدعوة الإسلامية، لأنّهم لم يريدوا أن يؤمنوا برسالة النبي محمد(ص)، ومن البديهي أنَّهم لم يكسبوا شيئاً من هذه الحروب سوى الدمار الحاصل بين البشر واستنزاف الطاقات البشرية والمادية، قالوا للنبي: أطلب ما شئت «مالاً أو نساءً أو جاهاً» نُعطيك كل ذلك مقابل أن تنصرف عن دعوتك.

(٤) (ن.م): ٢٣.
(٥) الاسراء: ٨٨.

لقد عجز أفصح وأبلغ العرب في زمن نزول القرآن عن الإتيان بسطر واحد، وهؤلاء الذين شهدت لهم الفصاحة والبلاغة إلى يومنا هذا، ولم يقتصر عجزهم على ذلك الزمن، بل لم يستطيعوا بعد ألف وأربعمائة عام عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

لقـد قام الأوربيون بأجمعهم مع ما يقـارب نصف الآسيويين بمحاربة الإسلام في الحروب الصليبية، وقد تكبَّدوا فيها خسائر فادحة، ذهب فيها حوالي مليوني إنسان بالإضافة إلى أنَّ الإسلام يواجه كل هؤلاء الأعداء من جميع المذاهب؛ فهل هناك طريق أقصر من أن يأتوا بسطر واحد من مثل هذا القرآن لكي يُبطلوا ادعاءه وتحدِّيه لهم؟

ألا يُعتبر هذا أوضح دليل على صحَّة القرآن، وأهمّ دليل على صدق وحقانية الذي جاء به؟

لقد جاء الأنبياء بمعاجزهم في جميع الأزمنة، ولكن هذه المعاجز يمكن أن يشكك بها في المستقبل، ولكن الدين الذي أراده الله أن يكون خالداً يجب أن تكون له معجزة أبدية خالدة. لذلك جعل القرآن معجزة للرسول(ص) لكي يبقى ثابتاً ومستقراً إلى الأبد ويتم الحجَّة أبداً على العالمين.

أمّا بالنسبة إلى وجهة إعجاز القرآن، وأنَّه كيف لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله، فلقد ذكرت لذلك عدَّة جوانب منها:

قمَّـة الفصاحة والبلاغة التي يتميَّز بها، والمعارف والعلوم الغيبية التي تتضمَّنها آياته، وكماله وعدم وجود النقص فيه... إلى آخره...

وذكر بعض العلماء أنَّ سبب إعجاز القرآن الكريم، هو أنَّ الله جعل عائقاً وحائلاً أمام الذين يريدون الإتيان بمثله، ولكن ليست هناك ضرورة في البحث حول علل وأسباب إعجاز القرآن، لكي لا ندخل في منعطفات البحوث العلمية.

ويكفي أن نعلم بعدم قدرة أحد من البشر على أن يأتي بمثل القرآن،وإذا كان ذلك ممكناً لأحدٍ من الناس لأتى بذلك. مع العلم أن الدوافع من أجل المجابهة مع الإسلام للقضاء عليه كانت موجودة في مُختلف الشعوب والمذاهب منذ عصر الرسول وحتى يومنا هذا.

إذن فالحجة تامة بالنسبة لنا، وما علينا إلّا أنْ نعقد العزم على أن نستلهم من علوم القرآن ومعارفه المبدئية والأخلاقية وأن نتعرَّف على أصوله الفرديّة والإجتماعية، ونتخذها منهاجاً في حياتنا اليومية.

إنَّ القرآن يصرّح بأن جميع المناهج اللازمة لجميع نواحي الحياة، والتي تحقق سعادة الإنسان، هي موجودة في القرآن. ﴿تِبْيَانَاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٦]. ولكن من البديهي أننا لا نستطيع تفسير واستنباط جميع الأحكام الإلهية بشكل تفصيلي، فمثلاً لا نستطيع أن نفهم من آيات القرآن أنَّ الصلاة بأي صورة يمكننا أداؤها وكم عدد ركعاتها، وكذلك مقدار الزكاة وما هي مواردها. إذن فمن الذي يُرشدنا لمعرفة تفاصيل ودقائق هذه الأحكام الشرعية، لكي نأخذها منه بشكل مفصّل؟

(٦) النحل: ٨٩.

إنَّ القرآن يقول (راجعوا النبي فإنّ قوله حجَّة): ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلْنَاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[7].

إنَّ الآيات نزلت للناس، ولكنك أنت الذي يجب أن تبيّنها لهم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[8].

يجب على النبي أن يقرأ القرآن ويعلِّمه للناس، هذان العملان من واجبات النبي، ومن الطبيعي أنَّ القراءة شيء والتدريس والتعليم شيء آخر، فهو الذي يجب أن يبين الجزئيات والتفاصيل، وهو الذي يجب أن يوضِّح الحقائق، وإذا لم يكن بيانه حجَّة، فما هي واجبات الرسول؟

فإذا كان في بيان النبي(ص) طريق للخطأ لم تتم الحجَّة على الناس، إنَّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يسلك الناس طريق الصواب، فيجب أن لا يغلب الشك والإرتياب على الطريق الذي أوضحه الله وبيّنه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[9].

﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[10].

إذن فالنبي معصوم وكلامه حق وواجب الطاعة، ولكن ماذا يصنع الناس بعد النبي.

(٧) (ن.م): ٤٤.

(٨) الجمعة: ٢.

(٩) النساء: ٦٤.

(١٠) (ن.م): ٥٩.

﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ .

من أين نفهم معنى كلمة «أُولي الأمر» فهل أنَّ من ينتصر على الآخر، أو يتسلَّط على رقاب الناس، يصبح ولي أمرهم ويجب إطاعته؟

من نفس هذه الآية الشريفة يمكننا معرفة أنَّ أُولي الأمر يجب أن يكونوا معصومين، كما كان الرسول معصوماً، لأنَّ طاعتهم جاءت في هذه الآية مقارنة لطاعة الرسول(ص) ولم تُقرن بقيد أو شرط.

لنفرض أنّنا لم نتعرف عليهم من خلال هذه الآية، فسوف نضطر لسؤال النبي(ص) عنهم، لأنَّ هذا الموضوع له من الأهمية ما يفوق أهمية الأحكام الشرعية وتفاصيلها، إنَّ النبي الأكرم(ص) ـ استناداً إلى روايات أهل السنَّة المتعددة والصحيحة ـ قد عيَّن أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام «أميراً» و«ولي الأمر» على جميع المسلمين والمؤمنين، وعيّن بعده أبناءه المعصومين(ع) الذين يكون عددهم معه إثني عشر إماماً.

ولا يسعنا المجال هنا لذكر الأدلَّة والأسباب لذلك، ولقد تمَّ تقديم البحوث الكافية خلال القرون الماضية حول هذا الموضوع، وكتب علماء الشيعة كتباً وافية ومفصَّلة حول هذا الأمر.

وفي نهاية بحثنا نقول: إنَّ الطريق الوحيد لمعرفة الدين الإسلامي الحنيف، هوالقرآن الكريم، وسنَّة النبي(ص) وكلام أوصيائه المعصومين لا غير.

المحاضرة الرابعة

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونَ﴾[1].

خلق الله الإنسان ليعيش حياةً سعيدة خالدة، ولهذا أوجب وجود أرضيّة للوصول إلى السعادة في تلك الحياة الخالدة.

على هذا الأساس يجب معرفة الهدف والطريق الذي يوصلنا إليه، وأن نسلكه بوعي وإدراك كامل، ومن المعلوم أنَّنا لا نستطيع تمييز طرق السعادة بالشكل الذي نوضح فيه جميع خطوطها، والذي يدلنا ويرشدنا إلى الطريق يجب أن يكون قد تعرَّف عليه أولاً، وأن يكون مطَّلعاً على بدايته ونهايته، أي أنَّ الله يجب أن يُرشدنا، وهداية الله تتم عن طريق الأنبياء، إذن يجب أن نعرف طريق الحياة من الأنبياء،ويجب أن ننظر إلى الأوامر التي جاء بها الأنبياء والمشاريع والسنن التي طرحوها للناس.

فما دامت الدنيا ليست هي الهدف، فيجب أن ننظر إليها على أنّها

(١) الذاريات: ٥٦.

وسيلة توصلنا إلى غاية وهدف أسمى، وأن لا نعتبرها هي الأساس وهي الهدف، وإذا كانت الدنيا ليست هي الهدف، بل هناك هدف أسمى، وهي الدار الآخرة، فعلينا أن نصرف لحظات العمر كلها في سبيل الوصول إلى ذلك الهدف الأسمى.

فإذا كانت هذه الحركات التي يؤديها الإنسان موجهة نحو الهدف، فإنّها ستوصله بلا شك إلى السعادة، وإلّا فسوف تحرفه عن الهدف، لهذا يجب توجيه جميع الطاقات والإمكانيات نحو ذلك الهدف، وأقل مقدار من الطاقة تصرف في غير هذا الطريق فإنّها تكون قد ذهبت هدراً، وستكون مَدْعاة للحسرة والندامة الأبدية.

وعلى هذا الأساس فإنَّ طريق الأنبياء يحتوي جميع اللحظات في عمر الإنسان، من لحظة ولادته إلى اللحظة التي يفارق فيها الدنيا، وإنَّ الذين يعتبرون الدين يختص في بعض المسائل العبادية فقط،هم على خطأٍ كبير.

فهل يمكن نيل السعادة عن طريق بذل دقائق من الوقت في اليوم؟

إنَّ عظماء ديننا كانوا يشكون دائماً من «قلّةالزاد وبعد الطريق» فمنهاج الدين وضع لجميع شؤون ونواحي الحياةوالواقع أنَّ الدين هو لون يصبغ مجالات حياتنا كلها، ويلوِّن جميع شؤون حياتنا المادية، الإقتصادية، الاجتماعية، الفردية و... بالصبغة الإلهية.

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾[2].

إنَّ لهذا المنهج خطوطاً عريضة وعامة، وأُخرى فرعية وجزئية، فعندما يريد المهندس رسم خارطة فإنَّ عليه من البدء أن يقوم برسم الخطوط العامة والعريضة ثم الفرعية. وطريقة الأنبياء هكذا، بمعنى أنَّ الذي دخل في هذا الإطار العام، فإنّه قد قبل منهج الأنبياء، ويأتي الدور بعد ذلك بتطبيق المناهج الفرعية، إذن يجب أن نحصل على الإطار العام ومن ثم نتطرق إلى تفاصيل الأمور.

فمن أين نتعرف على الخطوط العامة؟

إنَّ هذه الخطوط الرئيسية هي بمثابة الحدود التي من خرج عنها فقد تعرَّض للخطر، أوَّل موضوع تطرق إليه الأنبياء وارتكزوا عليه، هو العبودية لله.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3].

إنَّ عبودية الله هي الروح في جميع الأديان السماوية، فإنَّ أي جانب من حياتنا إذا فقد هذه الروح فليست فيه أي منفعة. إنَّ قصص الأنبياء في سورة الأعراف وغيرها تتفَّق في أنَّ رؤوس المواضيع في جميع

(٢) البقرة: ١٣٨.

(٣) النحل: ٣٦.

الأديان والرسالات التي جاء بها الأنبياء هي عبودية الله، حتى أنَّ نبي الإسلام(ص) جعل شعاره «لا إله إلاّ الله»،فالقرآن يعرف المقصود من خلق العالمين بأنَّه عبودية لله.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونَ﴾[٤].

ومن هذا المجال يمكن أن تطرح هذه الشبهة، وهي هل أنَّ الله يحتاج إلى عبودية الإنسان؟

وبالرجوع إلى البحوث السابقة يتَّضح لنا موضوع، هو أنَّ الله سبحانه قد خلق موجودات متكاملة كالملائكة ولا يعرف عددها إلاّ الله، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخلق موجوداً آخر يرتقي إلى مستوى أعلى من الملائكة، والوصول إلى هذا المقام لا يمكن إلاّ عن طريق الأفعال الإرادية، ومن جانب آخر فإنَّ هذا الإنسان نفسه يستطيع أن ينحدر في مستواه ليهبط دون مستوى البهائم.

﴿أُوْلئِكَ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٥].

ففي يوم القيامة يقول المذنبون:

﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾[٦].

وهذا سر عظمة خلقة الإنسان.

إنَّنا إذا عرفنا قدر أنفسنا، فسوف لن نصرف هذه الطاقات المادية

(٤) الذاريات: ٥٦..

(٥) الأعراف: ١٧٩.

(٦) النبأ: ٤٠.

والمعنوية العظيمة في الأمور التافهة والفانية والسريعة الزوال، وسنعرف قدرها في ذلك العالم الذي تتجلّى فيه الحقائق، وعندها سنتحسّر على كل كلمة أخطأنا في قولها، وكل نظرةٍ ألقيناها في غير محلّها، وكل صوت سمعناه وقد نُهينا عنه،وكل... وسنكون مسرورين من الأعمال التي قمنا بها في إطار عبودية الله.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ،وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[7].

إذن فالهدف من الخلقة هو عبودية الله، والطريق الصحيح والصواب هو أن لا نعبد إلّا الله، وما عداه فهو طريق الشيطان، وأي مكان لم يكن فيه الله راضياً، فإنّ الراضي هو الشيطان.

فهل يمكن أن تكون جميع أعمال الإنسان في إطار عبودية الله؟

نعم، عندما يكون الدافع لجميع الأعمال هو رضى الله، فإنّها ستدخل جميعها في عبادة الله، وستكون مؤثّرة في نيل السعادة الأُخروية، فمعنى العبودية لا تنحصر فقط في الصلاة، بل إنّ جميع الأفعال يمكن أن تأخذ طابع العبادة في حالة كون الدافع والمحفّز إلهياً، فإنّ المزاح من أجل سرور المؤمن يعتبر عبادة، وبناء الدار والزواج والإنجاب إذا كان كل ذلك من أجل طاعة الله وبنيّة خالصة لله فإنّه عبادة، وارتداء الملابس النظيفة والتعطّر واستعمال المسواك إذا كان دافعها إلهياً فإنّها تعتبر من

(٧) يس: ٦٠.

العبودية، ولو كان الهدف عاطفياً والغرض هوى النفس فإنّها لا تعتبر عبادة. فظاهر المؤمن لا يختلف عن ظاهرالكافر إلّا أنَّ الهدف يختلف بينهما.

ملاحظة

إنّنا نتصور أنَّ معنى التوحيد ينحصر في كون الخالق للعالم هو واحد لا شريك له، والحال أنَّ المعنى هو أن لا معبود إلّا الله، فإنّ المشركين كان لهم اعتقاد بالله.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[8].

فإنَّهم لم يكونوا يعتبرون أنَّ خلق الموجودات بيد الأصنام، ولكن كانوا يعتبرون الأصنام آلهة تعبد، فالأنبياء ورسالاتهم تختلف عن هذا الشيء، ويقولون أن لا أحد غير الله يستحق العبادة والالوهية.

(٨) لقمان:٢٥.

المحاضرة الخامسة

إنَّ الشجرة التي تنبت في الأرض سوف تتغلغل جذورها في أعماق التراب، وتتفرَّع عنها الأغصان والفروع، وتخرج الأوراق ثم تعطي الجنابذ لتتفتح عنها الزهور، ولكن كل ذلك ليس هوالهدف، بل هي بدايات لإعطاء الثمرة.. فإذا وجدت عوائق وموانع وصعوبات قبل إعطاء الثمرة، مثلاً عند جفاف الأرض أو بسبب الحر أو البرد أو قلَّة السماد أوكثرة السموم..تموت الشجرة. وعندها لا تصل إلى الهدف، فمثل هذه الشجرة يجب أن تحرق، أو أن تعطى إلى النجار لكي يصنع منها الأبواب والشبابيك.

الإنسان كذلك يعتبر التطور الذي يحصل له في مراحل عمره وسيلة للهدف النهائي، فإذا لم يحصل على الكمال الواقعي في حياته فإنه سوف يتعرض للإحراق.

إذن يجب معرفة الكمال الواقعي للإنسان، وهذا الكمال عرّفه وبيّنه الله تعالى، وهو الوصول إلى درجة العبودية، فإذا وصل الإنسان إلى هذه

الدرجة، فإنه سوف يرقى من بين البشرية، وإذا لم يصل إلى هذه الدرجة فلا قيمة له.

يقول القرآن الكريم ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[1].

ويقول أيضاً ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

ففي هاتين الآيتين يعتبر الله سبحانه الكافرين وأصحاب العقول المريضة من أرذل الدواب (وليس أرذل الناس).

إنَّ العبودية حدّ وسط بين الإنسان والحيوان، ولكن للإيمان والعبودية درجات، فإيماننا يختلف عن إيمان سلمان(رض) والنبي الأكرم(ص). إذ قال المعصومون(ع): إنَّ الفرق بيننا وبين الصالحين منكم كالشمس والنجوم.

إننا يجب أن نعرف الحدّ الفاصل بين النور والظلمة، وبعد ذلك أن نعرف طريقة تكامله، ما هو الحدّ بين الإيمان والكفر؟

حدود الإيمان هي أن نعرف الله، ونفهم أنَّه هو صاحب الأمر والنهي، سواءً في الأمور التكوينية أو التشريعية، بحيث إذا صدر حكم عن طريق النبي(ص) فيجب أن يُطاع دون نقاش، وكذلك الإيمان بالقيامة ويوم الحساب، وبعبارة أُخرى: التوحيد والنبوة، والمعاد والعدل

(١) الأنفال: ٢٢.

(٢) (ن.م): ٥٥.

والإمامة..

إنَّ الاعتقاد بالله الواحد الأحد، هو أساس لجميع المعارف والعلوم الحقانية، والإيمان بالمعاد هو الدافع للعبودية، والمنهج للحياة، ويجب علينا أن نتعرَّف على كيفية العبودية عن طريق الأنبياء، ولكن هل أنَّ العلم وحده يكفي؟

إنَّ العلم وحده لا يكفي، فكثيرون كان لهم علم بحقانيّة الأديان والإسلام، ولكنهم لم يؤمنوا، فعمل هؤلاء أشدُّ من الآخرين، فبالإضافة إلى العلم يجب أنْ يكون هناك إيمان واعتقاد، يقول القرآن فيما يخص الفراعنة:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[3].

العلم ليس دليلاً للإيمان، إنَّ مشركي مكة كانوا يعلمون أنَّ القرآن ليس من كلام أو عمل أحد من البشر، وكأنَّ أهواءهم النفسية لم تسمح لهم بأن يذعنوا للحق، وعلماء الأديان كانوا يعرفون النبي(ص) ولكنَّهم أظهروا له العداء.

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[4].

إذن.. لا ينال السعادة إلّا من عشق معرفة الإيمان، ووضع منهج حياته على أساس ذلك، ولذلك فالخطوة الأُولى هي الإيمان بهذه الاسس الثلاثة، بشكل يكون مؤثراً في حياتنا، فالإيمان ينمو ويزداد نتيجة العمل،

(٣) النمل: ١٤.

(٤) البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠.

وهذان الجانبان كلٌ له تأثير على الآخر، فبعض الأعمال يجب أداؤها، وبعضها يجب تركها.

وقيمة وثمن عمل الإنسان تعتمد على درجة إيمانه، فبعض يعبدون الله لكي ينجيهم من عذاب النار، فهي درجة من الإيمان، والبعض الآخر يعبدون الله للوصول إلى الجنة، وهذه درجة أخرى من الإيمان، والبعض الآخر يعبدون الله لأنَّهم يحبونه ويعشقونه، وهذه هي أعلى درجات الإيمان.

ولقد جاء في إحدى الروايات أنَّ العبادات على ثلاثة أنواع: فبعض يعبدون الله خوفاً وهذه عبادة العبيد، وبعض يعبدونه لأجل الدخول إلى الجنة وهؤلاء هم التجّار، ولكن الأحرار يعبدون الله لمعرفتهم وحبهم له، ويؤدّون العبادة شكراً لنعمائه.

يقول أمير المؤمنين علي(ع) في مناجاته مع ربّه: *«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتُك»*.

فالإنسان باستطاعته أن يصل إلى هذه الدرجة من الإيمان بالله، رغم أننا لا نستطيع إدراك حقيقة ذلك، لنفرض أنَّ صلاتنا التي نؤدّيها يمكن مقارنتها مع الصلاة التي يصليها أميرالمؤمنين(ع)، يخرجون السهام من قدمه حين يصلي، ولكننا نحن عندما ننتهي من قراءة التسليم في آخر الصلاة حينها نعرف أنَّنا كنَّا نصلي.

وعلى كل حال، فإن حدود الإنسانية هي العبودية لله، وقيمة العبودية هي النيَّة الخالصة والصافية لله، فلو قام أحد بعمل ما بدافع

العاطفة، فإنه لم يصل إلى هدف الإنسانية، لأنَّ نيَّته لم تكن لمرضاة الله ونيل السعادة الأُخروية، ولكنه يلتذُّ نتيجة أدائه لهذه الخدمة.

ففي الوقت الذي تكون لأعمالنا التي نؤدّيها قيمة حينما تكون بنيّة خالصة لله، وهذه لا تتحقَّق إلّا مع الإيمان بالله، لذلك فإنَّ أعمال الكافرين مهما عادت بالمنفعة على الآخرين، فإنها لن تؤثر في نيل السعادة الأبدية، ولا تقرِّب أصحابها من رحمة الله.

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾[٥].

وفي آية أُخرى ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[٦].

فالإنسان مكتوبٌ عليه الزوال والفناء، ولكنه إذا ربط مصيره بالله سبحانه وتعالى فإنَّه لن يزول بل يصبح خالداً. فما يعمله لنفسه أو لأجل مخلوق زائل آخر، فإنَّه يزول حتماً، إنَّ ارتباطنا بالله وبالحياة الخالدة يكون عن طريق القلب، فالأعمال الحسنة الصادرة من شخص غير مؤمن، يمكن أن تكون سبباً في تخفيف شدَّة العذاب، ولكنها لن توفِّر له السعادة الأبدية، ويجب أن ننتبه إلى أنَّ التوحيد لا يعني فقط توحيد الخالق، بل يعني أيضاً التوحيد في العبودية، فالإيمان هو أن نطيع الله في جميع أوامره، وبدون جدل أونقاش أواعتراض، حتى إذا لم نعرف الفائدة من ذلك.

إنَّ اليهودية والمسيحية كانتا تؤمنان بالله والنبوة والمعاد، ولكنَّهم لن

(٥) النور: ٣٩.

(٦) إبراهيم: ١٨.

ينالوا السعادة، لأنهم لم يؤمنوا بالدين الإسلامي، لأنَّ الإيمان يجب أن يكون مطلقاً، فالذين علموا أنَّ علياً(ع) مع الحق، وقد تمَّ تنصيبه وصياً للرسول(ص) من قِبل الله، فإنَّ هؤلاء يُبطنون الكفر مهما كانت معاملتهم كالمسلمين في الظاهر، إنَّ كفر هؤلاء يشبه كفر إبليس الذي سقط إلى أسفل دركات الجحيم بسبب عصيانه لأمر الله، مع أنَّه كان يوحِّد الله ويعبده لسنوات طويلة[7].

(٧) قال أمير المؤمنين(ع): «وقد عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى أمِن سِنيِّ الدنيا أم مِن سِني الآخرة» نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.

المحاضرة السادسة

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾[1].

خلق الإنسان للعبودية، فما هي العبودية؟

يعني أنَّ موجوداً يدرك أنَّه لا يملك استقلالية مقابل موجود آخر، كل ما عنده فهو منه ويحس بالافتقار اتجاهه.

العبد هو أن لا يملك شيئاً، وأن يقوم بجميع الواجبات للمالك، وأن يعلم أن عينه بيد مالكه يأخذها متى شاء فهي كالعارية وليست هناك أيَّة صعوبة في أخذها.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئَاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

نحن نعلم أنَّ وجودنا ليس من عند أنفسنا، يجب أن نعترف بأننا عبيد، لأنَّ حياتنا وموتنا ليس بيدنا، فلو كان بأيدينا فلماذا لا يمكننا التحكُّم بها؟ هل جئنا إلى الدنيا باختيارنا؟ وهل سنرحل عنها باختيارنا؟ مستحيل، إذن فإننا لا نملك أنفسنا.

وإذا كنّا نملك عيناً أو أُذناً فهي ليست من عملنا ولا نستطيع عمل شيء لكي نعيش بلا هواء، أو أن نرفع الجوع بلا طعام.

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) يس: ٨٢.

فالإنسان لا يستطيع أن ينكر احتياجه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾[3].

ويجب أن ترفع كل النواقص بواسطة من لا يحتاج إلى أحد.

﴿وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾[4].

هل يمكن صدور أوامر من موجودٍ هو ناقص في الأصل، ويحمل صفة النقصان من رأسه إلى قدمه، إلّا أنّ يظهر نقصه وحاجته ويعترف بهما؟

إنَّ جميع المخلوقـات بأفعالهم وحركاتهم - في الواقع - يظهرون عبوديتهم لله، وكذلك يشهدون على نقصهم وكمال المعبود.

إنَّ الحبَّة التي تنبت وتأخذ بالنمو في الأرض، فإن نموّها هو عبادة لله، الطيرالذي يطير والبلبل الذي يغرّد، وما يصدر عن أي موجود، فهو علامة على عبوديته.

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[5].

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[6].

﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[7].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... كُلٌّ قَدْ

(٣) فاطر: ١٥.

(٤) فاطر: ١٥.

(٥) آل عمران: ٨٣، البقرة: ١١٦، الروم: ٢٦.

(٦) الاسراء: ٤٤.

(٧) الجمعة: ١،والتغابن: ١.

عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيْحَهُ﴾[8].

إنَّ خلايا وجود الإنسان تشترك في هذا التسبيح التكويني الجماعي.

لقد أعطى الله سبحانه ـ من بين جميع المخلوقات ـ روح الإنسان اختياراً في عبادته، لكي تصل تلك الروح إلى أرفع الدرجات، العبودية هي أن يظهر الإنسان بأنَّه لا شيء ولا يملك من نفسه شيئاً، لذلك لا يستخـدم أعضـاءه وجوارحه في غير مرضاة الله، ليس فقط في وجوده الخارجي والموجودات الأُخرى، بل يجب أن تكون جميع شؤون الحياة بشكل تصور وتبيان العبودية لله، حتى القلب يجب أن يكون في اختيار الله وتصرفه ولا ندخل إليه ظن السوء حول عباد الله.

﴿إجْتَنِبُوا كَثِيْرَاً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ﴾[9].

ولأن القلب ليس ملكاً للإنسان، فيجب أن يكون حبه وكراهيته لله، أن يحب ما أراد الله أن نحبه، وأن يكره ما أراد أن نكرهه و نبغضه، فيجب أن يُحِبَّ أولياء الله ويبغض أعداء الله.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[10].

لقد قال النبي إبراهيم(ع) لعبدة الأصنام: إنّا نشعر بالعداء لكم، وإذا لم تؤمنوا بالله فستظل العداوة بيننا وبينكم إلى الأبد.

يجب علينا نحن كذلك أن نتأسّىٰ به.

(٨) النور: ٤١.

(٩) الحجرات: ١٢.

(١٠) الممتحنة: ٤.

﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[11]

يجب أن لا نبغض أو نكره مؤمناً، وإذا صدر منه عمل قبيح فيجب أن نكره ذلك العمل، ليس أن نكرهه هو، من جانب آخر لا يمكن أن نوالي أعداء الله ولا أعداء أوليائه الصالحين.

﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[12].

«هل الإيمان إلّا الحب والبغض»[13].

إذن، فالقلب لله أيضاً وعلى المؤمن أن يسعى دائماً لكي يكسب مرضاة الله، وحتى أنَّه يحاول أن لا يفعل المباح، وأن تكون أعماله بين الواجب والمستحب.

العبودية الكاملة هي أن يكون الإنسان نفسه وقفاً لله، فلو أدّى الإنسان العبودية لله اختياراً فستكون النعم الخالدة من نصيبه، وعدم أدائنا لعبادة الله لن تضرَّ الله شيئاً.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيْدٌ﴾[14].

إذن يرجع أمر الله في طاعته وعبادته، إلّا أنّ الإنسان إذا استخدم نعماءه بالشكل المطلوب، فإنَّه سيكون لائقاً لنَيْلِ نعمائه الخالدة.

(١١) الحشر: ١٠.

(١٢) آل عمران: ٨٧.

(١٣) اصول الكافي٢: ١٢٥.

(١٤) إبراهيم: ٨.

المحاضرة السابعة

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

خلاصة البحوث السابقة

السعادة الخالدة تعتمد على العبودية لله، والطريق الصحيح ينحصر في طريق العبودية هذا.

﴿وَأَنْ إعْبُدُوني هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[2].

وفي مقابل هذا الطريق الصحيح، فإنّ ما دونه فهو طريق الشيطان، علمنا ذلك أم لم نعلم. وفي هذه الآية من سورة يس ليس المقصود من عبادة الشيطان هو أن أحداً يقول: إنّ الشيطان هوالخالق، بل المقصود هو طاعته واتّباعه، أيّ طريق ينافي طريق عبادة الله فهو

(١) يس: ٦٠.

(٢) يس: ٦٠.

طريق الشيطان.

والآن ما هو الطريق الصحيح، أي طريق عبادة الله؟ العبادة هي أن يُظهر الإنسان عبوديته في عمله وتصرفاته، وأن لا يعتبر وجوده ووجود غيره من ملكه وبيده، بل يعتبر كل ذلك من ملك الله المطلق، والعبادة لا تقتصر على بعض الأعمال الخالصة، بل تتعدّاها إلى جميع شؤون الحياة.

فجملة من الأعمال القلبية مثل: ذكر الله، الإيمان بالله، حب الله و...، الإيمان هو التسليم القلبي والاستعداد تقبل الأوامر والنواهي الإلهيّة، حب الله وحب أوليائه من عبادة القلب.. بغض أعداء الله أيضاً من عبادات القلب، فالقلب الذي يجعل من نفسه وعاءً لحب الله، ويلتزم بمتطلّبات ذلك الحب، هوقلب مؤمن. والقلب الذي يرضى لرضى الله وتقديره هو قلب عابد. إنّ درجة من درجات العبادة هي الصبر على البلايا والمكروهات، والأعلى من ذلك هو الرضى والسرور، فالرضى أعلى من الصبر.

والتوكل هو إحدى حالات عبادة القلب، ففي نفس الوقت الذي يقوم الإنسان بإنجاز عملٍ ما فإنَّه يعتبر الله هو المؤثر، وما يملكه وسائل وأسباب للعمل، فمثلاً يخرج للعمل ولكنَّه يعتبر الله هو الرازق، فمن الممكن أنَّ أحداً يكون ذا نشاط كبير وتوكُّله قوي أيضاً، فإنَّه لا منافاة في ذلك. ومن الممكن أن يكون توكله ضعيفاً ونشاطه ضعيفاً أيضاً، أو أن يكون توكله باللسان فقط. إذن فالتوكل هو الاعتماد على الله ولا يعتمد على شدَّة النشاط وضعفه، فالذي يتوفَّر له التوكل، والذي يتوجه قلبه إلى

الله ويكون اعتماده واتّكاله عليه، كل ذلك هو عبادة.

قسم من العبادة بدنية، وهي الأعمال التي شرعت بقصد العبادة فقط، مثل «الصلاة والحج والصيام» والتي تعتمد على وضع القلب وبنيَّة القربة إلى الله.

ونوع آخر من العبادة، ماهيتها ليست العباده فقط، ولكنها يجب أن تؤتى بنية العبادة، لها منافع اجتماعية ولكنَّها يجب أن تؤتى إطاعة لأمر الله، مثل الخمس والزكاة والجهاد، فلو أنَّ أحداً أعطى الخمس والزكاة بدون قصد القربة فمن الممكن أن يسقط حق الناس عنه، ولكنَّه لم يؤدِّ حق الله بالقطع. يروى أنَّ كثيراً من الناس لا يُجزون شيئاً عن صلاتهم وصيامهم، أولئك هم الذين يأتون أو يؤدون ذلك رياءً.. وكثيرون لا ينالون من جهادهم إلاّ الجروح، أولئك الذين يقاتلون في سبيل الدنيا.

يروى أنَّ شاباً شجاعاً كان يقاتل في إحدى الحروب، فسأل أحد الأشخاص الذين كانوا ينظرون إليه رسول الله(ص) عن مقام هذا الشاب، فألقى رسول الله(ص) نظرة على ذلك الشاب وقال: لن ينال هذاالشاب أي درجة عند الله.

يقول الراوي عندما سقط هذا الشاب من على ظهر فرسه ذهبت إليه وسألته: ما الذي جعلك تقاتل بهذه البسالة؟ فقال: عندما كنت مارّاً في أزقَّة المدينة، قالت النساء: إنَّ هذا الشاب كسول جداً، فلقد ذهب الشيوخ للحرب، وبقي هو خوفاً على نفسه، فانزعجت من أن يعرفني الناس كسولاً وجباناً، وإنطلقت إلى الميدان بلا تأخير.

يقول الرواي: عندها اكتشفت صحَّة ما قاله رسول الله(ص).

قسم آخر من الأعمال، لا يعتبر من العبادات ولا هو من الواجب أن يؤتى به بقصد القربة، ولكن من الممكن أن يُؤتى به بقصد القربة وبصورة العبادة، وهي الأعمال المباحة، مثل تناول الطعام إذا كان بنية اكتساب الطاقة لغرض القيام بالعبادة وإطاعة أمر الله فهو عبادة، وكذلك الزواج إذا كان بنية رضى الله فإنَّ فيه أجراً وثواباً.

إذن يمكن أن نؤدي أعمال الحياة العادية بشكل تكتسب به عنوان العبادة.

نستخلص من ذلك أنَّ ثواب الأعمال البدنية لا يعتمد على حجمها وكميتها، بل يعتمد على النيَّة والإخلاص، فإذا لم تقم الصلاة بنية القربة ولم يؤتَ بالصوم بنيةالإخلاص بل بنية المحافظة على الصحَّة، والصلاة بنية الرياضة، فإنَّه لا ثواب من هذه الأعمال.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[3].

إذن فلم توضع الصلاة من أجل الرياضة البدنية، بل شُرعت من أجل ذكر الله والتوجِّه إليه.

ولكن لو أنَّ شخصاً جاء بالصلاة بنيّة القربة وتقوية البدن معاً، فهل ذلك مقبول منه أم لا؟

هنا يطرح على ذلك الشخص سؤال، هو: إنْ لم يكن في الصلاة

(٣) طه: ١٤.

جانب الرياضة فهل كنت تؤديها؟ فإذا كان جوابه إيجابياً فهي صحيحة، وإلّا فلا تقبل منه.

الـذي يؤدي فريضـة الحج، فإنَّ لسان حاله يقول: اللهم إنك تقول: إنَّ الحج مظهر كمال العبودية، تأمرني بالمشي فأمشي، بالركض فأركض، لا تلمس بدناً.. لا ألمس، لا تضاجع النساء.. لا أضاجع .. أُمكث الليل في المكان الفلاني.. أمكث، إذهب في النهار إلى المكان الفلاني.. أذهب. وغـيرها من الأوامر الإلهية، صحيح أنَّ من خلال هذه العبادة الجماعية يمكن تشكيل تجمع إسلامي عظيم، ولكن إذا كان الذهاب إلى الحج بنية هذا التجمع فهو باطل.

وباختصار، فإن الأمور المادية والاجتماعية كلها مقدمة للعبودية، وليست العبادة هي المقدمة لنيل السعادة المادية، فالأصل والأساس هي العبادة ليس الرفاه والسعادة المادية. فالحياة الدنيا في الإسلام هي مقدّمة لغرض التكامل الروحي والمعنوي في ظل العبودية لله، وجميع الحوادث الواقعة سواءً السّارَّة والمفرحة منها والمحزنة هي أساليب اختبار لدرجة عبودية الإنسان، وحتى انتصار المجتمع الإسلامي من أجل الحصول على إمكانيات أكثر فهو لغرض العبودية لله.

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا آسْتَخْلَفَ الَّـذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الَّذِي ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي

شَيْئاً﴾[٤].

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيْهَا اِسْمُ اللهِ كَثِيْراً﴾[٥].

نفهم من هذه الآية أنَّ الهدف من الدفع التكويني وتدبيرالمجتمعات، بالشكل الذي تتقابل القوى العظمى، أوالهدف من الدفاع التشريعي وقانون الجهاد، هوأن تبقى مراكز عبادة الله محفوظة، فالهدف الأساس هو عبادة الله لا غير.

(٤) النور: ٥٥.

(٥) الحج: ٤٠.

المحاضرة الثامنة

علمنا من البحوث السابقة أنّ الهدف الأساس من الخلق، والذي يجب أن يحصل عليه الإنسان في مسيرته التكاملية، هو مقام القرب الإلهي الحاصل عن العبودية لله. فكلّما كانت العبودية أكثر كانت السعادة أكثر وكلّما قلت العبـوديةفـإنّـه سيبتعد عن اللذائذ الأُخروية، ويبتلى بأمور توجب له العذاب.

لو قام الإنسان بإنجاز أفعاله كلها في سبيل مرضاة الله فسيحصل على أحسن السعادات الأُخروية.

فإن لم نستطع أن نأتي بجميع أعمالنا في سبيل الله فهل يجب علينا أن نيأس من الحصول على السعادة الأُخروية؟ أم هل يكفي أن نؤدي بعض أعمالنا في سبيل العبودية لنيل السعادة الأبدية؟

إنَّ سعادة البشر لها حد ونصاب، بحيث إذا قلَّت عنه فلن تكون حينئذٍ مُجدية، وبالتالي ستؤدي إلى الشقاوة الخالدة، فمثلاً من يريد أن يصبح سكرتيراً فإنّه يجب أن تتوفَّر فيه الشروط اللازمة، وأن يحصل على

معلومات أولية، ولا فائدة في أقل من ذلك، فالكمالات الإنسانية كذلك لها نصاب معين، فمن كان له ذلك النصاب فإنه سيحصل على السعادة الأُخروية، ولكن من لم يكن له ذلك النصاب فليس له أمل في نيل السعادة الأُخروية والوصول إلى دارالكرامة وجنة الخلد، وحد النصاب هذا هو الإيمان بالله.

فما هو الإيمان بالله؟

هل الإيمان أن نعرف بأن الله موجود وقد بعث أنبياءاً؟

إذا كان ذلك يكفي فيجب أن يكون إبليس وجميع الذين خالفوا الأنبياء من أهل السعادة، وفي الوقت نفسه نحن نعلم أنَّ الذين لم يطيعوا الله وخالفوا أوامره عن علم وإدراك، فإنَّ ذنبهم سيكون أكبر من ذنوب الآخرين.

فمن الممكن أن يعلم الإنسان شيئاً، ولكن قلبه لا يسكن ولا يطمئن إليه .. الأساس في الإيمان هو القلب.

لو فرضنا أنَّ أحداً حافظ على الإيمان، فهل يكفي هذا الحدّ من الإيمان لنيل السعادة الأبدية؟ كلّا، لأنَّ الشيطان كان يؤمن بخالقية الله، ولكنه لم يقبل الربوبية التشريعية لله، بمعنى أنَّه يجب أن يؤمن بصورة مطلقة بما جاء من عند الله وبدون جدال، ولذلك عندما أمره الله أن يسجد لآدم(ع) قال:

﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ﴾[1].

العبودية هي أن يدرك العبد أنَّه لا تجوز عبادة غير الله، السعادة الأبدية في قول (لا إله إلّا الله) فالتوحيد يعني أنَّه لا معبود إلّا الله ولا يعني أنه لا خالق إلّا الله، فالعلم وحده لا يكفي، والإيمان بالخالقية وحده لا يكفي، والمؤمن ليس ذلك الشخص الذي يقول (لا إله إلّا الله) باللسان فقط، فالمنافقون كانوا يدّعون الإيمان بالله فالقلب يجب أن يتقبل حتى إذا لم ينطلق اللسان، لأنَّه قد تكون حياته مهدَّدة بالخطر، أو قد يكون أخرس لاينطق بحرف. فما هو ملاك الإيمان؟

هل أنَّ أحداً لو آمن حقّاً، ولكنه بعد ذلك أنكر ضرورياً من ضروريات دينه، فهل ينفعه إيمانه في شيء؟

كلّا، فإنَّ ملاك السعادة هو أن الإنسان الى آخر عمره يكون محافظاً على إيمانه، وأن يترك الدنيا وينتهي عمره وهو مؤمن، وكما أنَّ الإيمان يجبُّ ما كان قبله، كذلك لو أنَّ أحداً خسر إيمانه آخر عمره، فإنَّ ثواب جميع أعماله وعباداته سوف لن يكون لها أيّ قيمة، كما يقول الله مخاطباً الرسول(ص):

﴿لَئِنْ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

فلو اعترض شخص على الله فإنَّ ذلك الشخص لا يصبح مشركاً، ولا ينفعه إيمانه شيئاً، فالذين كانوا يعلمون أنَّ خليفة النبي(ص)

(١) الحجر: ٣٣.

هو الإمام علي(ع) وقد عُيّن من قبل الله، وفي نفس الوقت لم يطيعوا الله فإنهم في الواقع ليس لهم إيمان مطلق، وإيمانهم كان مثل إيمان إبليس.

إذن شرط الإيمان هو أن نؤمن بما أنـزل الله، ولا ينسجم إنكار الحكم الشرعي (الذي يعلم الإنسان انَّه صادر من الله) مع إيمان الإنسان، ولكن في بعض الأحيان وبسبب إبتـلائـه بالشهـوات يقـوم الإنسان بارتكاب بعض المحرَّمات، ولكنه لم يُنكر الحكم الشرعي، وهو في نفس الوقت يشعر بالندامة في أعماق قلبه على أفعاله القبيحة، ويتوب بعد ذلك، فهكذا شخص لا يخرج عن الإيمان، إذن يجب أن يكون الإيمان مطلقاً وليس فيه قيد أو شرط.

المحاضرة التاسعة

﴿وَالعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ إِلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1].

رمز السعادة والشقاء هو الإيمان بالله.

لو تحقق الإيمان فمن الممكن أن تُمحى بعض الذنوب بسبب المعاناة الموجودة في الدنيا أو في عالم البرزخ، ولكن بدون الإيمان لا يمكن أن تكون لأعمال الإنسان أيَّة قيمة.

الإيمان حالة قلبية، بمعنى أن نقبل أنَّ الله هو صاحب الاختيار، وهي حالة انقياد تام، وهذا الإيمان يجب أن يكون مطلقاً بلا قيد أو شرط، وإلّا فلا قيمة له، كما أشرنا في البحوث السابقة.

إذن مِلاك الإيمان هو الانقياد والعبودية.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[2].

(١) العصر: ١ـ٣.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

الإيمان والعمل توأمان في القرآن الكريم.

﴿ألَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3].

بينهما علاقة العلّة والمعلول، والعمل يمكن أن يكون دليلاً على الإيمان، وكلّما كان العمل أكثر كان الدليل على الإيمان أقوى.

علاقة أخرى تربط الإيمان بالعمل وهي أنّ العمل يقوّي الإيمان، وبيانه أن الإيمان أمر قلبي كالمحبة، فمثلاً لو كان شخصان يحب أحدهما الآخر، فهذا الحبّ يترك أثراً على تصرفاتهما. يخدم أحدهما الآخر، يظهران الحبّ كلٌّ للآخر، يقدم أحدهما الهدايا لصاحبه.. هذه الأعمال النابعة من الحب، ولكنها تكون سبباً لتقوية ذلك الحب وازدياده، وفي العداوة كذلك.

ونظير هذه العلاقة موجود في الأمور الطبيعية، فلو بذرت بذرة في الأرض، فإنّها ستأخذ المواد الغذائية والماء، ويكون ذلك عاملاً على نمو النبات، وفي النتيجة فإنّ الجذور التي هي أساس نمو النبات ستنمو أيضاً وتزداد عمقاً في الأرض.

ويتجلى هذا الأثر بشكل أوضح وأكثر في الحالات الروحية.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[4].

إنّ الإيمان الذي هو العلاقة القلبية مع الله فإنّه يصعد إليه، والعمل الصالح يرفع ذلك الإيمان ويعطيه زخماً، ومن الطبيعي أن هذا

(٣) البقرة: ٨٢. وكثير من آيات القرآن.

(٤) فاطر: ١٠.

الصعود ليس جسمانيا، بل هو معنوي، فالإيمان مرتفع والعمل يساعد على صعوده وارتفاعه لكي يرتفع أكثر. إذن فالإيمان يبعث على القيام بالعمل، والعمل يسبب تقوية الإيمان.

العمل الصالح هو ذلك العمل النابع من الإيمان، ولا قيمة للعمل بلا وجود الإيمان، كما ثبت ذلك في البحوث السابقة.

ويتم دخول الجنَّة من خلال الإيمان، ولا يمكن للكافر أن يدخل الجنة أبداً، ولو كان قد عمل عملاً صالحاً، ولربما كان هذا سبباً في تخفيف حدَّة العذاب عنه.

من جانب آخر فإنَّ الإيمان مُوجِب للعمل، والإيمان والعمل توأمان، ولكن يمكن أنْ يتحقق الإيمان لدى شخص، ولكنَّه -لأسباب معينة - لا يستطيع العمل، فلو كانت تلك الأسباب مقبولة فلا إشكال في ذلك، ولكن لو آمن شخص ولم يعمل بمتطلباته وارتكب المعاصي فإنَّ ذلك سيكون سبباً في ضعف إيمانه، إلّا أن يتوب ويمحو ما كان سبباً في ضعف إيمانه، ويعمل صالحاً.

فكما أنَّ العمل الصالح يبعث على تقوية الإيمان، فإنَّ العمل السيء يوجب تضعيف الإيمان.

جاء في الروايات أنَّه إذا أذنب أحدٌ فإنَّ نقطة سوداء ستظهر في روحه وقلبه، وستتوسع هذه النقطة بمقدار ما تزداد ذنوبه حتى تحتل جميع القلب.فالإصرار على الذنب يمكن أن يقلع الإيمان من جذوره، كالشجرة التي تقطع منها كل يوم ورقة وتكسر أغصانها الكبيرة والصغيرة بعد ذلك،

ففي النهاية ستجف الشجرة.. أعمال الإنسان بمثابة أغصان وأوراق الإيمان.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السَّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[5].

وفي آية أخرى ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[6].

مثال: الإنسان في شبابه يهوى الزينة والشهوات، فمرة تدفعة قوة الشهوة إلى الانزلاق، ففي المرَّة الأولى ينزعج كثيراً، وأمَّا في المرَّة الثانية والثالثة فتخف حدَّة الإنزعاج، هذه الحالة تخلق في روحه حالة من الإزدواجية والصراع شيئاً فشيئاً، وهذا التناقض والصراع سيؤدي إلى حالة من العصبية وانزعاج الروح لديه.

فلو كانت ممارسات تقوية الإيمان موجودة فإنَّ النزوات الشيطانية سيقضى عليها، وإلاّ فإنَّ روح الإيمان ستكون عاجزة عن التأثير.

بعد ذلك التناقض ستطرأ عليه هذه الفكرة وهي أنَّه (يحتمل أن لا يكون هذا الذنب بتلك القباحة التي يتصورها، وأنه قد يجوز ارتكابه في ظرف من الظروف).

وبعد ذلك يقول: إنَّه من المحتمل أنَّ طلبة العلم جاءوا بذلك.

(٥) الروم: ١٠.

(٦) التوبة: ٧٧.

وعندما يؤتى له بدليل حكم العلماء فعندها يشكك بمصدر ودلالة ذلك السند.

وفي النهاية لو انغلق بوجهه طريق التشكيك فإنَّه من الممكن أن يقول: قد أخطأ النبي والإمام. ومن الممكن أن يكون هذا الحكم خاصاً بذلك الزمان ويجب أن يتغيَّر تبعاً لقاعدة الديالكتيك للانتقال وبالنتيجة.. يؤدي ذنب صغير إلى كفر الإنسان.

إذن فلا يغرنا إيماننا الضعيف ونرضى ونقنع به، بل يجب استمداد العون من الخالق دائماً لكي يُعيننا على تقويته.

المحاضرة العاشرة

خلاصة الأبحاث السابقة

يبعث الإيمان على العمل الصالح،والعمل الصالح كذلك يسبب تقوية الإيمان.

الهدف الأساسي للإنسان هوالوصول إلى درجة القرب الإلهي، ويمكن تحصيل هذه الدرجة عن طريقة العبودية، وتتحقق العبودية إمّا عن طريق القلب والأفعال القلبية مثل الإيمان والحب والبغض في الله، أو بواسطة الأعمال التي وضعت لغرض عبادة الله مثل الصلاة والصوم والحج و... أو عن طريق بقية الأعمال الاعتيادية عندما يكون أداؤها لوجه الله.

طريق الإنسان في وصوله إلى الهدف (الله) هو طريق العبودية لا غير. ولكن الحياة في الدنيا هي بشكل لا يمكن قضاء جميع الوقت بالعبادة، ويضطر الإنسان لأنْ يصرف قسماً من الوقت لأجل الملبس والمأكل وتأمين بقية الاحتياجات الفردية والاجتماعية. فهذه الأعمال لا تقرّب الإنسان إلى الله بذاتها إلّا أن تكون بنيّة القربة لكي تعتبر بمنزلة

العبادة.

ونحن رغم إيماننا بهذه الحقائق، لكننا نجد أنفسنا ضعفاء في مجال العمل بحيث أننا لا نؤدي الواجبات كما هو المفروض، فهل هناك أسلوب يقربنا إلى هذا الطريق؟ من أجل ذلك يجب أن نفكر: ما هو دافعنا لهذا العمل، وكيف يصدر عملٌ اختياري من الإنسان؟

عندما ندقّق مع أنفسنا و نتأمّل جيداً، نجد أن كل عمل اختياري يمر عبر مراحل، ففي البدء نتصور ذلك العمل وما يرتبط به، فمثلاً نتصور أن هناك متجراً، مدرسة، أو دائرة يذهب الإنسان إليها.

بعد ذلك نتصور نتائج ذلك، وما هي فائدة الذهاب إلى المتجر أو المدرسة أو..؟ وهل هناك ضرورة في بعض الأحيان؟

وبعد التصور وتصديق الخسارة والربح، تأتي مرحلة التخمين وترجيح الأفضل، كي نختار أحدها في نهاية الأمر.

فلو دققنا في كيفية ظهور التصور الابتدائي، للاحظنا أنه يحصل نتيجة العوامل الخارجية، مثل أذان المؤذن فإنه يذكرنا بالصلاة، ولكن ذكر ذلك في المرات الأخرى يحصل نتيجة التعلق والحب الشديد كما لو واعدت صديقاً على أن تراه على رأس كل شهر، ويتّفق أن تذكره في الوقت المحدد، فتلك علامة الحب الشديدة.

حتى أنَّ الإنسان-في بعض الأحيان-يتكلم عن شيء يحبه في المنام، أو أنه بعد استيقاضه مباشرة يذكر ذلك الشيء الذي يحبه ويتعلّق به، أو أنه قبل النوم وعندما يريد الذهاب للنوم يفكر أكثر ما يفكر بالشيء

الذي يحبه ويتوجه إليه.

إذن فالحب الذي هو حالة قلبية له دور مهم في أعمالنا، وهذا الحب والتعلق يأتي من اللذات التي يتذوّقها الإنسان من الأشياء التي يحبها.

فلكي تكون جميع أعمالنا في سبيل الله، يجب علينا في المرحلة الأُولى أن نصل إلى حب الله، يجب أن نحصل على حب قلبي لله والقرب لديه ومجاورة رحمته.

وهذاالحب يحصل بعد تحقق بعض المقدمات. وبعبارة أُخرى: يتم التوصّل إلى حبه تعالى بعد معرفته، فكلما ازدادت المعرفة به، فإن الدافع نحو القيام بأعمال الخير وسلوك الطريق المؤدي إلى جوار قربه ورحمته سيزداد، لو أنَّ كل أحد بمقدار ما لديه من القابلية على المعرفة والإحساس يفكر في الله ونعمائه وألطافه ويتمعَّن في النتائج المترتبة على العبودية لله، والأضرار التي تحصل نتيجة ترك العبودية، فإنَّ الدافع نحو القيام بأعمال الخير وترك عمل الشر سيتأصَّل لديه. والاستمرار على هذا العمل يعطيه قوة في الإيمان، ويزيد من رغبته في أعمال الخير. وتسبب قوة الإيمان في أداء العمل بصورة أحسن وأكثر إخلاصاً، وهذا العمل بدوره سيكون عاملاً لتحكيم الإيمان وتعاليه.

فمثلاً: من جاء بالفرائض على صورتها الصحيحة، فإنَّه ستتولد لديه الرغبة في الإتيان بالنوافل، ولكنه إذا توانى في الإتيان بالواجبات، فإنَّه سيكون سبباً للتواني في هذه أيضاً.

فإنَّ العبادات ـ في واقع الأمر ـ لها لذة لا يمكن مقارنتها بغيرها.

فالعبـادة تبعث على الأنس مع الله، الأنس الذي يوجب على الإنسان دائماً أن يقوم بالعمل الصالح ويتقرب إلى الله، وعدم الإلتذاذ بالعبادة إحدى العقوبات الإلهية التي تحصل بسبب بعض الذنوب، تقول الروايات: إنَّ لله عباداً يحبون عبادته ويعشقونها، ويقول أمير المؤمنين(ع) في نهج البلاغة، *«إنَّ لذكر الله أهلاً يرجحونه على جميع النعم واللذائذ الدنيوية الأُخرى»*[1].

إذن فالمواظبة على الأعمال العبادية والصلاة وذكر الله، تؤدي إلى استحكام الرغبة ونمو الإيمان، وتحيي الدافع للعبودية في القلب، وكل هذه بدورها عوامل لتوجيه جميع الأعمال الأُخرى بنيَّة التقرّب إلى الله، وتقف على أقل تقدير أمام الأعمال المخالفة لمرضاة الله، وفي هذا المجال يتَّضح لنا الأمر من التأكيد على ذكر وعبادة الله في الآيات والروايات:

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيْراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

﴿وَلَذِكْرُ اللهِ اَكْبَرُ﴾[3]. ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيْلاً﴾[4]. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاَسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيْلاً﴾[5].

كان أمير المؤمنين(ع) يذكر الله ويقرأ القرآن حتى أثناء ضرب

(١) معنى كلام الأمير (وليس النص). *المترجم*.

(٢) الأنفال: ٤٥.

(٣) العنكبوت: ٤٥.

(٤) الأحزاب: ٤٢.

(٥) الإنسان: ٢٦.

الفأس وسقي الأرض.

روي عن الصادق(ع): *إنَّ أبي الباقر(ع) ما فارق لسانه سقف حلقه وهو يلهج بـ«لا إله إلّا الله»*[٦].

السر الأساس هو أنَّ التوجّه القلبي إلى الله ـ وذكره ـ يشكل المحور للطريق المؤدي إلى قرب الله، وثانياً كلما كان الإنسان شديد التفكير بالهدف، كلما سبّب ذلك في ابتعاده عن الانحراف. فلو أنَّ أحداً نسي الهدف وأغفله، فلا أمان له من الضياع، والتأكيد على ذكر الهدف يؤدي إلى تثبيته وزيادة تأثيره في النفس، ولقد قلنا سابقاً: إنَّ الخطوة الأولى للقيام بالعمل هي التصور لذلك العمل.

من هذا نستنتج هدف القرآن في التأكيد على الصلاة وذكر الله، وحتى أنه شرع تكرار بعض التسبيحات في الآية الواحدة عدَّة مرات. ومن الطبيعي أنه كلما كان الإتيان بهذه الأعمال بحضور القلب، كلما كان تأثيرها في كمال الإنسان وسعادته أكثر، بالشكل الذي لا يمكن قياس الفرق بين درجات هذه الأعمال بالمحاسبات العادية.

ولكن على فرض أن لا يستطيع الإنسان أن يأتي بجميع أعماله مع حضور قلبه، فذلك لا يعني أن يستخف بالعمل، فبالتالي لا يخلو أي عمل عبادي من النيَّة والتوجه الإجمالي إلى قرب الله، بحيث أن روح العمل تسبب صحته، ولو استمرت هذه النيّة حتى آخر العمل فإنَّها

(٦) اصول الكافي٢: ٤٩٩.

ستؤثر مهما كانت ضعيفة وباهتة، ولكن يجب أن لا يكون العاقل إلى هذا الحد ضعيف الهمَّة ليكتفي بهيكل العمل والنيّة الضعيفة، لأنَّ النسبة بين هذا العمل والعمل الذي يأتي عن همَّة عالية وحضور قلب، لا يمكن قياسها.

وعلى سبيل المثال فإنَّ الفرق بينهما كالفرق بين نور الشمعة ونورالشمس، فيجب أولاً أن نتعلم مفاهيم الصلاة والأذكار التي نتلوها وكذلك معاني القرآن الكريم، وبعدها نسعى لكي ندرك مكانتنا من المعبود العظيم الذي نقف أمامه، وعندها نؤدي العبادة بأكمل التوجّه وتركيز الانتباه، لكي نحصل على النتائج المتوخَّاة من ذلك.

المحاضرة الحادية عشر

﴿وَيْلٌ لِلْكَـافِـرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ الَّـذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلىٰ الآخِرَةِ﴾[1].

يرتبط الإيمان بالعمل بواسطة علاقتين:

فالعلاقة الأولى، هي لأنَّ الإيمان هو سبب العمل الصالح، وشرط الإيمان هو أن المؤمن يجب أن يقوم بالأعمال التي يرضاها الله. إذن فالعلاقة الأولى هي أنَّ الإيمان علَّة العمل.

العلاقة الأخرى، هي أنَّ العمل يبعث على تقوية الإيمان.

موضوعنا في هذه المرة عن العلاقة بين الكفر والعمل القبيح، بمعنى أن الكفر بالله يبعث على القيام بالأعمال القبيحة، وفي المقابل يسبب إرتكاب الذنوب والأعمال القبيحة التقرّب نحو الكفر أو تقويته.

القرآن والروايات يوضّحان هذه الحقائق، الإيمان بالله يتفرع عنه الإيمان بالتوحيد والنبوة والمعاد. والكفر كذلك يتفرع إلى أحد أو جميع

(١) إبراهيم: ٢ ـ ٣.

هذه الأصول الثلاثة.

إنَّ الذي لا يؤمن بالله لا يجد في نفسه الحاجة إلى النبوَّة فينكرها، وينكر يوم الحساب، والكتاب، والثواب والعقاب. ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَىٰ﴾[2].

إنَّ الآية الأُولى التي تقول ﴿وَيْلٌ لِلْكَافِرِيْنَ...﴾ تشير إلى روح الكفر والذي يُعتبر التعلق الشديد بالدنيا.. السبب في نشوء الكفر هو التعلق الشـديد بالدنيا، وقرينة الكفر هو العصيان، والأعمال القبيحة تُوجب اقتراب الإنسان من الكفر، أو أنَّ الكفر يعمق التوجّه إلى عمل القبيح.

فأساس المعصية هو عبادة النفس، التي تظهر على شكل عبادة الشهوة وطلب الراحة.﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[3].

فملاك الكفر هو عبادة النفس، وهذه العبادة لها مظاهر، فعبادة المال التي تسبب عدم الإنفاق هي إحدى مظاهرها.. طلب الجاه والشهوة كذلك من مظاهرها.

من الـطبيعي أنَّ الإيمان لا يخالف امتـلاك الأمـوال والسلطة، فالمؤمن يحصل على المال وينفقه في سبيل الله، فذلك حسن، ولكن الذي يخالفه الدين هو أن يصبح المال والمقام هدفاً لا وسيلة، فلو أنَّ أحداً رأى أنَّ المحافظة على المال والمقام يخالف مشيئة الله فتركهما، فهو من عباد

(٢) الجاثية: ٢٤.

(٣) الجاثية: ٢٣.

الله، فإنَّ سليمان(ع) كانت له سلطنة عظيمة، ولكنه كان يريد المال والمقام لله ولأجل خدمة الناس وتوسيع رقعة التوحيد، فكتب إلى بلقيس((يجب أن تعتنقي الإسلام وتعبدي الله لا أن تعطي الجزية وأن يصبح بلدك تحت سلطتي وحكومتي)).

من المظاهر الأُخرى لعبادة النفس هو التكبر، هذا الخلق الشيطاني يجعل الإنسان في الحالات الضرورية يمتنع عن الخضوع أمام عباد الله، كالأُم والأب، والفقراء من عباد الله وهذا يؤدي إلى ضعف الإيمان وزواله.

إنَّ قصة الشيطان ليست أُسطورة، بل هي واقعية، وذكرها القرآن عدَّة مرات، وذلك من أجل تربيتنا، فالشيطان مع جميع عباداته وعلمه ومكانته وقدرته أصبح من أرذل مخلوقات الله واستحق اللعنة إلى الأبد وسيكون مصيره إلى الجحيم، كل ذلك بسبب استكباره ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤].

إنَّ سبب ذلك كان أنه امتنع عن السجود لآدم وتكبَّر وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٥].

﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٦].

جاء في رواية:«*أُصول الكفر ثلاثةٌ: الحرص، والاستكبار،*

(٤) ص: ٨٥.

(٥) الأعراف: ١٢ وص: ٧٦.

(٦) البقرة: ٣٤.

والحسد»[7].

إنَّ كثيراً من الصفات النفسانية تمنع الإنسان من أن يقبل الحق ويؤمن به، يقول القرآن في حق منكري المعاد.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيْدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[8].

تشير هذه الآية إلى السر النفسي في إنكار المعاد، وتقول: إنَّ الإنسان يريد أن لا يلتزم بشيء وأن يكون في تصرفاته بلا قيد، لذلك فإنَّه لا يقتنع بالحق، ولا يؤمن بالحساب والكتاب، وإلّا فإنَّ قدرة الله على إحياء الموتى لا تخفى على أحد.

فالعامل المؤدي إلى الكفر هو التعلُّق الشديد بالدنيا.. بمظاهرها، عبادة المال، عبادة المقام، وعبادة الشهوة و...، ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِيْنَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ الَّذِيْنَ يَسْتَحِبُّوْنَ الحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَةِ﴾[9].

أحد جذور الكفر هوالحسد، وهو أن لا يستطيع الإنسان رؤية نعمة أعطاها الله لغيره ويصبر على ذلك، توضح لنا ذلك قصة هابيل وقابيل ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ﴾[10].

(٧) أصول الكافي٢: ٢٨٩. بحار الأنوار٧٢: ١٠٤.

(٨) القيامة: ٣ـ٥.

(٩) إبراهيم: ٢ـ٣.

(١٠) المائدة: ٢٧.

فملاك قبول الأعمال هو التقوى، ولكنه بالتالي قتَل أخاه وبذلك وقعت أوَّل جريمة قتل على وجه الأرض، وكان سببها الحسد.

يجب أن لا يفكر الإنسان بأنَّه بمجرد إيمانه قد أمِن من جميع الأخطار، فخطر الكفر موجود في كل لحظة. فيجب عليه أن يجاهد نفسه، يبتعد عن الذنوب، فالماء والهواء والسماء لا يكفي لنمو الشجرة، فيجب إزالة موانع النمو أيضاً، وكذلك الإيمان، فلو آمن أحد ولم يطهِّر قلبه من مظاهر الكفر مثل عبادة النفس و... فإنَّه معرّض للكفر على أي حال ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوْا أَنْ يَقُوْلُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُوْنَ﴾[11].

فالحياة الدنيا-في الأصل-اختبار وامتحان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[12].

فمن الممكن أنَّ هناك جذوراً للكفر في أعماقنا، والتي تؤدي إلى ضعف أو زوال إيماننا ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّ وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ﴾[13].

ولعل روح الكفر تكون لدينا قويَّة. فالمعيار الذي يمكن من خلاله تمييز الكفر عن الإيمان هو التعلق بالدنيا. فلو كنّا نرجِّح الدنيا على الآخرة، فذلك يعني أننا نتَّجه إلى الكفر.

ولتقوية الإيمان يجب التقليل والحدُّ من التعلُّق بالدنيا، وأحد الطرق الجيدة للحدِّ من حب الدنيا هو الإنفاق. يقول القرآن: ﴿لَنْ

(١١) العنكبوت: ٢.

(١٢) هود: ٧ والملك: ٢.

(١٣) يوسف: ١٠٦.

تَنَالُوا البِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّوْنَ﴾[١٤].

وجعل القرآن تشريع الزكاة وفلسفتها لتطهير القلب ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيْهِمْ بِهَا﴾[١٥]، فالقلب الطاهر أصل طهارته من طهارة صاحبه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيٰهَا﴾[١٦]، فالفلاح يتحقق في ظل طهارة القلب ممّاً هو غير الله، ومما يبعد الإنسان عن الله ﴿وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾[١٧].

على هذاالأساس، ولأجل تقوية الإيمان،يجب القيام بالأعمال الصالحة فقط، والامتناع عن القيام بالأعمال القبيحة والأفكار السيئة، وأن نطهِّر القلب من الشوائب ومظاهر حب النفس المختلفة الصور.

(١٤) آل عمران: ٩٢.

(١٥) التوبة: ١٠٣.

(١٦) الشمس: ١٠.

(١٧) الحشر: ٩ والتغابن: ١٦.

المحاضرة الثانية عشر

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيٰهَا﴾[1].

استنتجنا من المواضيع السابقة أنَّ السعادة الإنسانية رهينة عبودية الإنسان لله، وكلّما كانت عبودية الإنسان أكثر كانت مكانته من السعادة الإلهية أقرب، والعكس صحيح.

العجيب هو أننا نعلم أن كلما كانت عبودية الإنسان أكثر وطاعته لرسول الله أكمل، فإنه سينال السعادة بصورة أوفر، ففي الوقت ذاته ترى طاعتنا لله ورسوله ضعيفة.

ومع علمنا بسوء طريق الشيطان لكننا نتبعه.

فلو كان الحاكم على تصرفات الإنسان عقله لكانت جميع أعمالنا صالحة، ولكن ليس العقل هو الحاكم في جميع البشر، بل هناك قوة وحكومة للقوى الأخرى إلى جانب العقل.

فالعقل لدى البعض كالسجين الذي عُزل من منصبه وقيِّدت يده

(١) الشمس: ١٠.

ورجله وترك في زاوية من الزوايا، فنحن لدينا متطلَّبات تتعلَّق بحاجات الجسـد، كالجوع والعطش وهما من متطلَّبات البدن. كالأم التي تتعلق بأطفـالها وتتعهد تأمين احتياجاتهم ورفع الأخطار والمشاكل عنهم وهي تشعر بلذة من وراء ذلك.

وهنـاك متـطلَّبـات أخـرى ترتبط بالنوع الإنساني كالعواطف الاجتـماعية، فمثلاً عندما نصادف إنساناً وقعت له حادثة الحريق فإننا بمجـرد رؤيتـه نتألم لذلك ونهرع لخلاصه. وهذه العواطف توجد لدى الحيوانات أيضاً.

نوع آخر من المتطلَّبات يرتبط بقوة التصور، كالشاعر الذي يلتذ ويأنس لمقطع من الشعر أو بعض التشبيهات والاستعارات التي استعملها.

لذة أخرى ترتبط بقوة الخيال والوهم، فمجموعة تضحِّي بأموالها وأبنائها لتحصل على المنصب والرئاسة، فقد أودع الله فينا هذه القابليات لمصلحة وحكمة، وما دامت جميعها تحت قيادة العقل فإنها تؤثر في سعادة الإنسان نحو الكمال.

وفي الحقيقة فإن هذه القوى بمثابة جيش يقاتل الاعداء بقيادة العقل لكي يصل إلى الوطن الأصلي. فالهدف النهائي للقوى الإنسانية هو القرب الإلهي، ومن أجل الوصول إلى الهدف جهزنا الله بجنود ووضع لها قائداً تحت عنوان العقل، ومكانته القيادة العامة لجميع القوات، فلو أن أحـد هذه القـوى انتفض على العقل وخرج عن قيادته فإنه يجر

الإنسـان إلى الـذنب والضياع، وإذا لم يُقض عليه وانتصـر انقـلابه وخضعت حكومة الإنسان لسيطرته فإنه سيحكم عليه بالشقاء الخالد.

في بداية حياتنا تدفعنا الحاجات والمتطلَّبات الحيوانية إلى السعي والمثابرة لتحقيقها.

بعدها يأتي دور اللعب الذي هو أقوى عمقاً من الأول، وهو الذي يستعد الإنسان لتحمل الجوع والعطش من أجله.

وفي سن البلوغ تظهر حاجة أخرى تختلف عن سابقاتها نوعاً ولكنها حاجة حيوانية أيضاً وهي الميل الجنسي.

فعـلى طوال فترة الـطفـولـة والفترات الأخرى تنمو حاجات الإنسان حسب الظروف الخاصة، بما في ذلك الحاجة إلى الشخصية والجاه.

فالطفل يريد من الآخرين احترامه والاهتمام به، وأن يحتل مكانة في المجتمـع. ويحتمـل أن تنمـو هذه الغريزة وتغطي على جميع الغرائز والمتطلَّبات الأخرى لديه.

إن جميع هذه القوى والمتطلَّبات والقابليات هي آلات بيد العقل، يتصـرف بها في جميع النشاطات اليومية، ومن أجل جميع شؤون الحياة خلال مسيرته التكاملية، فلو كان العقل قوياً ويستطيع تمييز الخير والشر والصـالح والفاسد ويحافظ على سيطرته بالنسبة للقوى الأخرى، فإن الإنسـان سيأخـذ موقعـه في الطريق الصحيح ويطوي مسيرته بإتجاه السعادة الأخروية، أما لو كان إدراك الإنسان ضعيفاً ولم يتمكَّن من تمييز الخير والشر، أو كانت القوى الحيوانية وعواطفه قوية بحيث تطفىء نور

العقل، أو أنها انتفضت عليه وعصت أوامره، فلا يتوقع أن يؤدّي كل ما يراه صالحاً.

فلو لم يستطع العقل أن يقيّم الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة، ولم يدرك العلاقة بين الدنيا والآخرة، فإن قدرته ضعيفة. أمّا لو استطاع ذلك ولكن القلب عصاه ولم يستطع صرف النظر عن بعض اللذائذ الدنيوية، فإن العقل سيكون مغلوباً على أمره، ويسيطر عليه هوى النفس.

إنَّ الإدراك والفهم لدى الشيطان أكبر منا بكثير، ولكنه يستخدم كل ذلك في الطريق الشيطاني، فمن أجل أن ننتصر على القوى الشيطانية يجب علينا أن نستخدم قوة العقل، ومن أجل أن نأمن شر الشيطان يجب أن نقوي في وجودنا العقل وحكومته وأن نزيد من قدرته بواسطة العلم والمعرفة والتأمل والتفكير.

إنَّ العواطف ـ فردية كانت أو اجتماعية ـ تكون مفيدة عندما تنقاد للعقل، فبعض الناس يتحرَّقون لجوع الفقراء ويقومون بنشاطات واسعة من أجل إشباع الناس ورفع نواقصهم المادية، إنَّ هذه العاطفة تتجلى بصورة أخرى لدى الإنسان المؤمن، فالذي يؤمن بالحياة الأخروية الخالدة يتحرَّق وتتهيَّج عواطفه من أجل هداية الناس وتوجيههم إلى السعادة الأبدية، وبعد أن يخلِّص هؤلاء من الضياع والانحراف فإنَّه يفكر في إشباع ورفع احتياجاتهم المادية.

نفس هذه العواطف الاجتماعية لا تكون نافعة إلّا إذا كانت تحت سيطرة العقل وإمرته.

أمّا لو عارضت حكم العقل فإنّها تفقد قيمتها، فلا قيمة للعاطفة عندما تكون مانعاً لتنفيذ حكم الله. يقول القرآن: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ اللهِ﴾[2].

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

(٢) النور: ٢.

(٣) النور: ٢.

المحاضرة الثالثة عشر

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1].

نبذة عن المحاضرة السابقة

توجد في الإنسان غرائز متعددة ويمكن تقسيم هذه الغرائز - بصورة عامة - إلى عدَّة مجموعات:

فمجموعة تتعلق بالاحتياجات المادية التي يشعر الإنسان بارتياح عند رفعها وتأمينها.

والنوع الثاني من الغرائز يتعلَّق بمسألة بقاء الإنسان وهي الغريزة الجنسية.

النوع الآخر هي العواطف العائلية كحب الأب والأُم لأبنائهم وبالعكس.

(1) الشمس: ٧ - ١٠.

والنوع الآخر هي العواطف الاجتماعية، ومثالها أنَّ الإنسان يتأثر ويألم لمصائب الآخرين.

والنوع الآخر يتعلَّق بقوة الخيال، ومثالها التلذذ بالشعر أو التألم منه، فنجد أن الشعراء يتلذَّذون لسماع الشعر اللطيف أو الاستعارات والكنايات الجميلة.

والنوع الآخر يتعلَّق بقوة الوهم، كما يأنس الإنسان لأن يكون له منصبٌ ومقامٌ مرموقٌ.

هذه القابليات والغرائز هي التي تدفع الإنسان إلى الحركة والنشاط، لكنها تكون مفيدة عندما تدخل تحت سيطرة العقل، أمّا لو انتفضت على قوَّة العقل، فعندها لا يستطيع الإنسان أن يحصل على ما يريد.

نعرض صوراً لتأثيرات العواطف والغرائز على العقل، فمرة تسيطر على القلب وتكون ستاراً يحجبه عن العقل ويصرفه عن الإمعان في المصالح والمفاسد التي يتعرض لها الإنسان.

فالشاب الذي يعيش مرحلة المراهقة، وتتحرك غريزته بواسطة المناظر المهيِّجة، نرى سيطرة الشهوة عليه بشكل لا ينتبه إلى مفسدتها ويقوم بارتكاب المحرَّمات.

والتأثير الآخر هو أنَّ الإنسان يخدع نفسه بسبب تعلُّقه الشديد رغم علمه بمصلحة ومفسدة ما يقوم به، كالذي يحب المنصب ويتعلَّق به، فعلى الرغم من علمه بمصلحة ومفسدة الرئاسة نجده يخدع نفسه ويبرر

طلبه للرئاسة بأنّه يريد خدمة الناس بواسطة الوصول إلى السلطة، ولكنه لو فكّر جيداً لعلم أنَّ الخدمة هي الطريق للوصول إلى الرئاسة، ولو حدث أن أصبحت الخدمة عائقاً أمام وصوله للسلطة فإنّه ينسى كل شيء من أجل الوصول إليها.

الصورة الأخرى هي أنَّ الإنسان يعلم أنَّ العمل الفلاني يضرّ به وبمجتمعه، ويعترف بذلك. ولكنه مع ذلك يقوم بارتكاب ذلك العمل، فمثال ذلك المعتاد على شرب الخمر، فهو مع علمه بأضرار شربها لكنه لا يمتنع عن تعاطيها.

إذن فالتعلق باللذائذ الحيوانية له ثلاثة أضرار:

الأول: أنَّه يحجب العقل.

الثاني: أنَّه يخدع الإنسان ويجرُّه إلى التبرير الخاطئ.

والأخير: أنَّه يعصي العقل بوعي وإدراك.

والإنسان الذي يخرج عن نطاق عقله هو كالحيوان أو أرذل منه وأكثر وحشية في بعض الأحيان، فيجب علينا ـ من أجل تحصيل السعادة ـ أن نجعل العقل حاكماً على القوى الحيوانية ونستخدم البقية بعنوان الجنود المطيعين للعقل، فالعلاقة التي تربط العقل بالقوى الحيوانية هي علاقة الآمر بالمأمور.

هناك مبانٍ أخرى في هذا المجال، فقسم يقول: إنَّ الإنسان يجب أن يخضع للشهوات ويفعل ما تشتهي نفسه بشرط عدم مزاحمة الآخرين، فهؤلاء يجعلون العقل في خدمة القوى الحيوانية الأخرى.

المبدأ الآخر يقول: إنَّ هناك عدوين داخل وجود الإنسان، فيجب عليه أن يقتل أحدهما لكي يعيش الآخر ويتطوَّر، ولذلك فيجب أن يقتل القوى الحيوانية لكي يكتمل العقل والروح، ونمتنع عن القيام بجمع اللذائذ الدنيوية.

هذان المبدآن يرفضهما الإسلام والأديان السماوية، فالبعض يظن أنَّ الإسـلام وضع هدفين لخلقة الإنسان، الأول مادي والثاني معنوي، ولكل واحد منهما مساحة وقيمة تساوي الآخر فهذا النوع من التفكير غير صحيح أيضاً ولا يمكن ـ على أساسه ـ حل التعارض الموجود بين القوى الحيوانية والإنسانية.

مبدأ الإسلام أنَّ هدف الإنسان هو الله، ولذلك خُلق، وأنَّ أعضاء البدن أدوات وآلات من أجل تكامل الروح، فإنَّ إيجاد السلام بين الروح والبدن وتقسيم اللذائذ بينهما بصورة يكون كل واحد منهما حاكماً مستقلاً على جانب من حياة الإنسان، وذلك في الحقيقة تضييع لقسم كبير من القوى الحياتية للإنسان، كما أنَّنا لو ساوينا بين المهندس والعامل، فيوم يقـوم المهنـدس بإطاعة أوامر العامل ويوم يقوم العامل بإطاعة أوامر المهندس. إنَّ المراد من العدالة ليس ذلك وإنَّما يجب أن يكون المهندس هوالآمر والعامل، هو المطيع والمنفذ. فالقوى التي يمتلكها الإنسان هي في الواقع مجموعة من العمال يجب أن تعمل تحت أوامر العقل من أجل تكامل الإنسان وبذلك تتَّضح العلاقة بين الدنيا والآخرة.

وكـما قلنـا سابقاً: إنَّ الحياة الدنيا هي مقدمة للحياة الأخرى

ووسيلة لاكتمال الحياة الآخرة، والدّنيا ليس لها أي أصل لذاتها.

إذن فالمفروض أن لا يعتبر الإنسان هذه اللذائذ الدنيوية هدفاً له، ويجعل كل سعيه في سبيل الوصول إليها، بل عليه أن يضع كل جهده في الأعمال التي تساعد على إعمار آخرته سواءً كانت مريحة أو متعبة.

طبيعي أنَّ الذي يعرف قيمة الحياة الأخروية يلتذ للأعمال المتعبة (الأعمال المفيدة في تحصيل الآخرة) في هذه الدنيا، كالذي يحمل كيساً ثقيلاً من المجوهرات على كتفه، فهو متعب من حمله ولكنه مسرور في نفس الوقت لأنَّه يعلم مدى قيمة هذا الكنز العظيم.

فالحياة الدنيا كالجسر الذي يوصل إلى الآخرة، ومن الطبيعي أنَّه تجب صيانة الجسر وإعماره لكي يمكن العبور عليه، فلو بقي الجسر بلا صيانة فإنَّه سينهدم ويؤدي بالعابرين للسقوط في النهر، ولكن لا يعني ذلك أن نتخذ من الجسر هدفاً لنا ونختاره سكناً ومستقراً، فالتعلق بهذه الدنيا كبناء البيت على الجسر، فمن أجل الوصول إلى قمّة الكمال يجب بذل الجهود والطاقات كلها في طريق الآخرة.

الفرق بين المؤمن والكافر، هو أنَّ الكافر يتعلّق قلبه بهذه الدنيا، ولكن المؤمن يتّخذها وسيلة للوصول إلى السعادة الخالدة.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيٰهَا...﴾[٢].

لقد خلق الله الإنسان وبيّن له الطريق الصحيح من الخطأ، فمن اختار الطريق الصحيح وزكّى نفسه فهو سعيد، ومن اختار طريق

(٢) الشمس: ٧.

الخطيئة ولوث نفسه فقد شقي. فالآيتان ١٤ و١٥ من سورة الأعلى تبينان علامة من زكّى نفسه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[٣].

فلكي نعرف مدى تزكية أنفسنا علينا أن نلاحظ مقدار هذه العلامة في أنفسنا؟ هل نذكر الله في أنفسنا؟ وهل نعطي للصلاة والخضوع أمام الله أهمية أم لا؟

إنَّ الذي يصلي وهو يريد أن ينهي الصلاة بأسرع وقت، وكأنَّه يريد الخروج من السجن، وسرعان ما يهرع صوب المشرق والمغرب بمجرد انتهاء الصلاة وينشغل بنفسه. إنَّ ذلك دليل على عدم إستئناس هذا الشخص بالصلاة وذكر الله، هذه الحالة علامة تلوث القلب، وهو دليل على أنَّـه متعلق بزخرف الدنيا وزبارجها، فعلامة طهارة النفس والقلب هي ذكر الله.

إنَّ الأنبياء وأتباعهم الحقيقيين يعيشون بين الناس ولكن قلوبهم بعيدة عنهم فهم دائمو الإتصال بالله.

فالقرآن لا يبين أكثر من هدف واحد هو الله وحده، فلوكان هدف الإنسان من حياته الوصول إلى قرب الله، فإنَّ أعماله ستكون صالحة وحياته مرموقة، وإلا فإنَّ مصير جميع قواه إلى الضياع ولن تكون هناك قيمة لحياته، سواء كان عمله فردياً أم اجتماعياً، لأنَّ المجتمع من وجهة نظر الإسلام ليس له أصل بحد ذاته.

(٣) الأعلى: ١٤ ـ ١٥.

المحاضرة الرابعة عشر

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَوَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1].

حاولنا في المواضيع السابقة أن نبين الهدف من خلقة الإنسان وطريق تكامله للوصول إلى الهدف، وتوصلنا إلى أنَّ سعادة الإنسان تنحصر في قربه من الله، وأن القرب الإلهي هو أعلى الدرجات التي يمكن من خلالها الحصول على أسمى اللذائذ والسعادات. ويمكن الحصول على هذه الدرجة عن طريق العبودية. ولأنَّ الهدف من الحياة هو الوصول إلى هذا الهدف فيجب الإنصراف إليه وبذل جميع الطاقات لتحقيقه.

وتوصلنا إلى أنَّ البداية ينبغي أن تكون من القلب، وأنَّ القلب إذا طهر فإنَّه سيعطي الحياة لونها الحقيقي وقيمتها المرموقة، وبحثنا العلاقة بين الإيمان والعمل، وتوصلنا إلى أنَّ هناك علاقتين بين الإيمان والعمل، فالإيمان يوجب القيام بالعمل الصالح، والعمل الصالح يؤدي إلى تقوية الإيمان وكماله.

(١) المؤمنون: ١، ٢.

كلما كانت أعمال الإنسان أكثر صلاحاً دلّ ذلك على قوة إيمانه وهذا بدوره يؤدي إلى بقائه كاملاً، فمن أجل تقوية الإيمان يجب أن نقوم بالأعمال الحسنة، والعمل الحسن يعني أنَّ فاعله حسن، ويؤدي هذا النوع من الأعمال إلى كمال صاحبه، وبالتالي يكون في سبيل الله.

قسم من الأعمال وضع لعبادة الله فقط، مثل الصلاة. ومجموعة من الأعمال يؤتى بها لغرض توفير الحاجات الضرورية للإنسان كالمأكل والملبس، وهذه الأعمال ليست بحدِّ ذاتها من العبادة، ولكن المؤمن يجب أن يقصد بها القربة إلى الله.

ونوع آخر من الأعمال تفرضها الحياة العائلية، ويجب أن يؤتى بها في الجو العائلي.

وقسم آخر يؤتى به في المحيط الاجتماعي وتفرضه الحياة الاجتماعية، ويجب أيضاً أن نقوم بها في سبيل الله، وكما يأمرنا به الله.

فيمكن أن نقسم الأعمال العبادية إلى أربعة أقسام، فالذي يتصدر الأهمية هو العمل الذي يكون عبادة في حدِّ ذاته، وذلك ما تم استنتاجه من خلال المواضيع السابقة.

إنَّ أكبر الأعمال قرباً إلى الله هي الصلاة. فعلى الرغم من كثرة الآيات والروايات التي تؤكد ذلك وقد سمعناها عن طريق القرآن والنبي(ص) والأئمة(ع) ولكن كأننا لم نصدق ذلك، فلو كنّا قد صدَّقنا ذلك بشكل واقعي لما استخففنا بالصلاة بهذه الصورة.

وعلى أيّ حال فالذي يُلقي ـ ولو نظرة سطحية ـ على القرآن يجد

أنــه في كلِّ سورة ذكر للصلاة. أو الذي يلاحظ أوصاف المؤمنين يجد الصلاة في مقدمتها. نظرة سطحية إلى القرآن تبيّن لنا أنّ الموضوع الذي اشار إليه جميع الأنبياء هي الصلاة، فعندما يعرف عيسى بن مريم نفسه وهو في المهد يقول:

﴿إنّي عَبْـدُ اللهِ آتَـاني ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَني نَبيَّاً﴾[٢]. حتّى يقول: ﴿أوْصَاني بالصلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيَّاً﴾[٣].

ويشهـد مضمـون أول سورة للقرآن بأنّها سورة بلسان العباد ولأجل الصلاة.

وتبدأ السورة الثانية من القرآن بهذه الجملات ﴿الَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بالْغَيْبِ وَيُقِيْمُوْنَ الصَّلاَةِ﴾[٤].

يقول نبينا إبراهيم(ع) في مناجاته ﴿رَبَّنَا إنِّي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ....رَبَّنَا لِيُقِيْمُوا الصَّلاَةَ﴾[٥].

وفي أول سورة (المؤمنون) في بيان أوصافهم يقول القرآن ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٦].

إننا نسعى جاهدين لِكي نؤدي الصلاة بقراءة صحيحة، ونتعلم من

(٢) مريم: ٣٠.

(٣) مريم: ٣١.

(٤) البقرة: ٣.

(٥) إبراهيم: ٣٧.

(٦) المؤمنون: ١-٢.

المسائل ما يتعلّق بأدائها، ولكن هذه الآية تجعل السبب في سعادة المؤمن وفوزه بالآخرة هو الخشوع في الصلاة، فلو علمنا حقاً أن سبب السعادة والفلاح هو الصلاة، فهل يجب أن نؤديها بهذه الصورة؟ إذن فإننا لا نقول «حيّ على الفلاح» بالاعتقاد واليقين الكاملين، أو أنا لم نصدق ـ لحد الآن ـ أنّ طريق الفلاح هوالصلاة، فصفات المؤمن وعوامل سعادته كثيرة، ولكن الصلاة في المقدمة.

وعلى أي حال فإنّ نظرة سريعة وإجمالية للآيات والروايات تكفي ليفهم الإنسان أنّ خير الأعمال وشرط السعادة هو الصلاة.

هنا لابد لنا أن نذكّر بأنّ ارتباط السعادة البشرية بالصلاة لا يعني أن يترك الإنسان جميع أعماله ويكتفي بالصلاة وحدها، فمثلاً بدلاً عن الصيام والزكاة والحج والجهاد الواجب نأتي بالصلاة لأنّ الصلاة «خير العمل»، كما أنّ الخليفة الثاني من أجل أن لا ينسى المسلمون أهمية الجهاد فقد أمر بحذف[7] جملة «حيَّ على خير العمل» من الأذان وأن يؤتى في الصباح بجملة (الصلاة خير من النوم) بدلاً عنها، فإنّ هذا التوهم كما لو يقول أحد بما أنّ أهمية الهواء في حياة الإنسان أكثر من الماء والغذاء فلأجل الإستمرار بالحياة يمكننا أن نكتفي باستنشاق الهواء فقط.

(٧) بحار الأنوار ٨٤: ١٤٠ وعلل الشرائع ٢: ٥٦.

المحاضرة الخامسة عشر

﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[1].

بيّنـا آنفاً أنّ الإنسان بطبيعته الفطرية يرغب في الحصول على السعادة، وأنّه في حالة علمه بطريقها فسيتّجه نحوها. لو علمنا يقيناً أنّ الصلاة هي التي توصلنا إلى السعادة لانتظرنا حلول وقتها بفارغ الصبر.

وإننا مضطرون من أجل أن نعرف أهميتها إلى أن نبحث عن دورها في سعادتنا.

إنّ كثرة الآيات والروايات في هذا المجال لا تدع مجالاً للشك والـترديد والتسـامح والتهاون، فلماذا لا نصدق بأنّ الصلاة هي عامل السعادة، وبعد أن علمتا أن النبي(ص) قد جاء من عند الله، وأنّ كلّما يقول هو وحي إلهي فلا مبرر في عدم قبول ذلك وانتظار فهم فلسفة الصلاة وأسرارها.

وفي نفس الوقت فإنّ تأثير الصلاة في السعادة الحقيقية للإنسان

(١) طه: ١٤.

له دليل واضح، وخاصة بعد أن فهمنا أنّ الكمال البشري يتحقّق بالقرب من الله، وكلّما يقترب الإنسان من الله فإنّه يقترب من السعادة الحقيقية، فالمطلوب إذن هو القرب الإلهي، ولكن هذا القرب ليس جسدياً كتقرب جسم إلى آخر، فليس (والعياذ بالله) القرب من الله يعني أنّ الله في نقطة من الأرض أو السماء، وبواسطة طي الطرق الأرضية أوالسماوية يمكن للإنسان الوصول إليه. فإنّ الله يحيط بكل شيء، يقول القرآن ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2].

فكيف إذن يكون تقربنا إلى الله؟

إنّ هذا القرب قرب معنوي وإدراكي وليس له أي علاقة بالأيدي والأرجل، بل إنّ الإرتباط بالله يتم عن طريق القلب، فيجب أن يتوجه القلب إلى الله، ويقيم علاقته معه، والصلاة أحسن وسيلة لتوجه القلب وتقوية علاقة العبودية، وهي تركيبة من الحركات والسكنات والأقوال والأفعال التي توجه وجود الإنسان كله إلى الله، ولو أنّها أُقيمت بحضور القلب وخشوع الفؤاد لكان لها أحسن الأثر في التقرب إلى الله، ولكن قلوبنا متعلقة بزخارف الدنيا ومشغولة باللذائذ المادية بحيث لم يبق هناك مجال للتوجه والإرتباط مع الله، ولذلك فإنّ صلاتنا تفتقد الروح وليس لها ذلك التأثير في القرب من الله، إنّ لكل أمر دنيوي حبل يربطه بقلوبنا وبازدياد هذه الحبال فإنّ ارتباطنا بالله لن يجد له منفذاً من بينها، وهذا

(٢) ق: ١٦.

الـذي يجعلنـا نهرب في تفكيرنا بمجرد إقبالنا على الصلاة،ونغـــرق بعض الأحيان في تفكيرنا بحيث يفقدنا أي توجّه للصلاة، ولا ننتبه إلى صلاتنا إلّا عندما نصل إلى السلام في نهايتها.

طريق واحد يقربنا من الله، ويجعلنا نؤدي الصلاة بحضور القلب، وهـو أنّ نقلل من علائق القلب ونؤدي أعمالنا لوجه الله، فمثلاً يأكل الإنسان الطعام من أجل التلذذ ـ مرة ـ ويكون دائماً حريصاً على أكل الجيد من الطعام، ولكنه ـ مرّة أُخرى ـ يأكل لكي يكتسب الطاقة من أجل العمل في سبيل الله، ففي هذه الحالة لم يتعلّق قلبه بالطعام ولم يسيطر حب الأكل على قلبه. أو إنّه ـ مثلاً ـ يمارس العمل والتجارة والصناعة و....لإنّ الله أمر بذلك، فهو لم يتعلّق قلبه بالمال، أو أنّ ذلك يدل على أنّه لا يتجاوز عن حريم القوانين الإلهية ولا يلوث يده بالحرام، ولا يشغله عمله عن أداء واجباته الشرعية. يقول القرآن:

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾[3].

فالعاشق دائم التفكير في معشوقه، ولا يشغله عن ذلك أي شيء، بل إنّه يسخّر جميع أعماله ونشاطاته لأجله ولأجل تحقيق رغباته، وأولياء الله أرفع من هذه الدرجة.

﴿اَلَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾[4].

(٣) النور: ٣٧.

(٤) البقرة: ١٦٥.

فالمؤمن دائماً في صدد الإتيان بالأعمال التي يحبها الله، وقد بين الله ما يحب من الأعمال ويكره في القرآن.

﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ﴾[5].

﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾[6].

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِيْنَ﴾[7].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللهَ فَاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[8].

فلو أحببنا الله وعلمنا أنَّ السعادة تتحقق في القرب منه لأقبلنا على الصلاة بلهفة ورغبة،لأنَّ الصلاة ذكر المعشوق، بل هي لقاؤه والتحدُّث إليه ﴿أَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[9].

فالتوجّه لله بالنسبة إلى الروح بمثابة الماء والهواء والطعام بالنسبة للبدن، فكما أنَّ الجسد يموت بدون غذاء وهواء وماء، فالروح تحتاج إلى ذكر الله، وبدونه تموت وتُحرم من السعادة «*بذكرك عاش قلبي*»[10].

فكما أنَّ الإنسان لا يتعب من التنفس بل يتعب من حبس النفس، فإنَّ الروح ما دامت بحاجة إلى ذكر الله فيجب أن لا تتعب من

(٥) لقمان: ١٨.

(٦) البقرة: ٢٠٥.

(٧) البقرة: ٢٢٢.

(٨) آل عمران: ٣١.

(٩) طه: ١٤.

(١٠) دعاء ابي حمزة الثمالي.

الصلاة وكذلك من ذكر الله، فلا حاجة للدليل على أدائنا للصلاة يومياً، أو تكرار التسبيح، فإننا نجهل ولكن الله يعلم أنّه لو جئنا بقدر أقل من المفروض في العبادات فإنّ قلوبنا ستتلوث، كالجسد الذي يختنق نتيجة عدم وصول الهواء والأوكسجين الكافي إليه... قلوبنا كذلك تشرف على الموت بترك الصلاة.

يجب أن لا يصرف الإنسان عن أداء الصلاة (حتى المستحبة) أي شيء إلّا الأوجب منها.

فلو كان هدفنا هو الله فعلينا أن نرفع خطواتنا الروحية والمعنوية نحوه، ومن أهم هذه الخطوات هي الصلاة.

خلاصة البحث، أنّ الإنسان طالب للسعادة، ولو علم أنّ سعادته في شيء لطلبه، ولما تهاون في أدائه، وأنّ سعادة الإنسان في ذكر الله وقربه، وأنّ الخطوات إليه هي توجهات القلب، وأفضلها الصلاة «*حيَّ على خير العمل*».

وعلى هذا الأساس يجب أن لا نتعب من العبادة، وبالنظر إلى هذه المقدمات نعلم أنّ الصلاة عامل السعادة.

«*حيَّ على الفلاح*».

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[11].

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[12].

(١١) المؤمنون: ١.

(١٢) البقرة: ٤٥.

فهذا التثاقل لأننا لسنا من أهل الخشوع، وسبب ذلك هو التعلق والأشتياق للأمور المادية والدنيوية وعدم معرفتنا بالصلاة.

يروى أنَّ النبي(ص) كان عندما يحل وقت الصلاة كأنه لا يعرف أحداً[13]

ويروى أنَّه عندما يحل وقتها كان يقول«*أرحني يا بلال*»[14].

ويقول«*قرَّة عيني في الصلاة*»[15].

(١٣) كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدثنا ونحدثه وإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه. جامع الأحاديث ٢: ٢٥٠ من المستدرك: ٢٦٤. من عدة الداعي عن عائشة. جامع السعادات ٣: ٣٢٨.

(١٤) البحار ٨٢: ١٩٣، ٢١١، ٢٢٢. جامع الأحاديث ٢: ٤.

(١٥) ...*يا أبا ذر إنَّ الله جعل قرة عيني في الصلاة وحببها إلي كما حبب إلى الجائع الطعام وإلى الظمآن الماء، وإنَّ الجائع إذا أكل الطعام شبع والظمآن إذا شرب الماء روى، وأنا لا أشبع من الصلاة. البحار ٨٢: ١٩٣.*

المحاضرة السادسة عشر

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فِيْ صَلاَتِهِمْ خَاشِعُوْنَ﴾[1].

لكي ندرك أهمية الصلاة بشكل أفضل، يجب أن نفكر في عمل الصلاة، ماهو نوعها؟ ولماذا نؤديها؟ ولكن كلما يمكن قوله عن الصلاة هو أنها التوجه إلى الله، فالتوجه نحو الأجسام يعني أن نؤدي وجهنا نحوها، ولكن الله ليس جسماً ولا ينحصر في جهة ومكان خاص ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوْا فَثَمَّ وجهُ اللهِ﴾[2].

فالتوجه إلى الله يتم عن طريق القلب، وعلى هذا الأساس فلو أننا صرفنا قلبنا إلى شيء آخر في الصلاة فكأنّما صرفنا وجهنا عن الله وأدبرنا عنه، وإن هذا عمل قبيح وباعث على الخجل ويستحق صاحبه التوبيخ والعقوبة.

ومن أجل أن نفهم شناعة هذا العمل بصورة أوضح نضرب

(١) المؤمن: ١.

(٢) البقرة: ١١٥.

هذاالمثال:

افرض أنَّك ذهبت إلى صديقك لزيارته، ولكنك عند تحدثك إليه أعطيته ظهرك، فما مقدار الإهانة التي تتصورها من ذلك؟ وكذلك بالنسبة للضيف، وخاصة إذا كان شأنه وقدره أعظم من المضيف، فلو لم يكن قلبنا متوجهاً إلى الله أثناء الصلاة، فذلك يعتبر إهانة لمقام الخالق العظيم الشأن، ولكن الله لا يعاقبنا لأنه غفور رحيم.

تقول الروايات إنَّ الله يقول «*أما يخاف الذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل الله وجهه حماراً*»[3].

ألا يعلم أنه يواجه من!

يذكر في روايات متعددة عن الإمام السجاد والمجتبى(ع) أنه إذا أقبل إلى الوضوء والصلاة يتغير حاله ويصفر لونه، فيسأل عن ذلك فيجيب: ألا تعلمون على أي عظيم أريد أن أُقبل[4]؟

يقول القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُوْنَ﴾[5] والخشوع حالة قلبية تترك آثارها على المظهر العام للوجه

(٣) وقال صلى الله عليه وآله: «*أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه حماراً*». *مستدرك الوسائل* ١: ٢٦٤، جامع السعادات: ٣٤٣ وجاء في هذا الكتاب «وجهه وجه حمار» أي وجه قلبه كوجه قلب الحمار. جامع الاحاديث ٢: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٤) كان إذا توضأ للصلاة وأخذ في الدخول فيها اصفر وجهه وتغير، فقيل له مرة في ذلك، فقال: *إنّي أُريد الوقوف بين يدي ملك عظيم* . المستدرك ٢: ٢٦٥ ، جامع السعادات ٣: ٣٢٩.

(٥) المؤمنون: ١.

والبـدن، ولكن لا يعني أن كل من اتصف بهذه الصفـات الظاهرية فإنَّه خاشـع، إلَّا أن يكون ذلك نابعاً من الخشوع القلبي، فلو أنَّ أحداً كان مغموماً فإنَّك تراه مقطباً وجهه، ولكن لا يعني أنَّ كل من قطَّب وجهه فهو مغموم وكئيب. فيجب أن لا نتصور أننا بمجرد ميل الرقبة وتدلي الرأس قد أصبحنا خاشعين.

يجب أن نسعى لإيجاد أوليات الخشوع في أنفسنا، يعني أن نشعر أنفسنا عظمة الخالق وحقارة المخلوق، وأن نفكر في ذنوبنا وخيانتنا، وأن توجد محبة الله المتعال في قلوبنا بديلاً عن كل ذلك، لكي نستطيع أن نؤدي الصلاة بخشوع، ولا تأتي هذه الحالة مطلقاً بوجود حب الدنيا وزخارفها في قلوبنا، فلا يتلاءم حب المال والزوجة والبنين مع حب الله.

يقـول القـرآن: ﴿قُـلْ إِنْ كَانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُم وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـيْرَتُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْـتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـاكِنَ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُـوْلِـهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيْلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾[٦].

فإذا حلّ وقت الصـلاة فانـظر في نفسك، هل ترغب في الصلاة جماعـة في أول الـوقت تؤديهـا في المسجد؟ أو أنك تريد أن تنجز معاملة مربحة؟ فلو كان هذا الأمر بالنسبة لك أكثر أهمية، فذلك دليل على أنك تحب الـدنيا أكثـر من الله، وواضح أن الخشوع في الصلاة لا يحصل مع وجود هذه الحالة.

(٦) التوبة: ٢٤.

إنَّ الصـلاة تعبـير عن العبودية، فيجب أن يوجه الإنسان كل وجوده فيها ليعبر عن عبوديته. هل أن واقعنا يشير إلى أننا وضعنا كل جوارحنا (نظرنا، وأيدينا، وأرجلنا، ولساننا، وقلبنا، وتفكيرنا، وروحنا) في خدمة الله؟ أو أننا ارتكبنا خيانة لله بواسطتها؟ على الرغم من أن كل هذه الجـوارح نعم قيّمـة، ينبغي استمـداد العون منها لتحقيق الكمال والسعادة الحقيقية والتوجه إلى الله.

لحظة تفكير في قدر هذه النعم، فمثلاً لو قدر أن تعرضت أعيننا لعمى، فكم سنكون مستعدين للإنفاق على علاجها، فالملياردير يستعد لإنفاق نصف ثروته لإصلاح نظره، فالله أعطانا إيَّاها بلا مقابل، لكي نصـرف طاقتهـا من أجـل الـوصول إلى السعادة الأبدية، ولكننا لو سخرناها لمعصية الله فقد قمنا بخيانة الله وناموسه، وما عظم الخيانة التي ارتكبناها بحق مصالحنا المادية والمعنوية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾[7] فلو أنَّ صديقاً خان صديقه في التعامل لخجل من النظر إليه بعد ذلك، فكيف إذن نقف أمـام الله بعين خائنة، فلو كان لدينا عقل وإدراك وشعور لسقط نظرنا إلى الأرض بدون اختيار، وهذا الحال يختلف عن الذي يوجه نظره إلى محل السجود قهراً.

فلو أننا سمعنا الغيبة والكذب والموسيقى واللغو، فإنَّ ذلك يعني أن آذاننا خائنة، فاللسان الذي يكذب ويسب ويتلفظ الفحش، أو يتابع عيوب الناس هو لسان خائن، وكذلك فإنَّ اليد والرجل وجميع أعضاء

(٧) المؤمن: ١٩.

البـدن تتحمـل مسؤولية وتعتـبر خائنة على غرار تلك المسؤولية ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُوْلاً﴾[8].

والأهم من كل ذلك هو القلب، فليست إنسانية الإنسان بعينه وأذنه، فإنَّ الحيوان يمتلك ذلك أيضاً، بل هي بالعقل والتفكير، وما يؤسف له هو أنَّ تلوث قلوبنا قد سبق تلوث بقية الأعضاء، وأنَّ تلوث الأخيرة تنبع من تلوث القلب. فالقلب الذي يحب أعداء الله أو أعداء أوليائه هو قلب خائن... القلب الـذي يهوى المال والشهوة الحرام قلب خائن.. القلب الذي يعتقد ويعتمد على غير الله قلب خائن.. القلب الذي يظن السوء بعباد الله قلب خائن...

فها نحن هؤلاء نلوث قلوبنا بالأفكار الخاطئة والمقاصد السيئة والبخل وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة، فكيف نغسل وجوهنا وننظف ظاهرنا أمام الضيف، ولا نطهر قلوبنا أمام الله! أليس من المؤسف أن لا يحضى قلبنا بحب الله! فقلوبنا لا زالت غير لائقة لاستيعاب حب الله ورسوله والأئمة الأطهار.

فلو أردنا أن نؤدي الصلاة بحضور القلب وخشوعه، لوجب علينا أن نطهر القلوب من هذه الشوائب، وأن ننزع حب كل ما يبغض الله، ونسعى لكي لا نحب إلاّ الله، أي أن لا نحب شيئاً إلاّ في سبيله ومن أجل

(٨) الاسراء: ٣٦.

قربه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[9].

فلقد سبقت تزكية النفس في هذه الآية ذكر الله والصلاة، ويحتمل أن يكون المقصود هو أنّ القلب ما دام لم يطهر من الدنيا وعلائقها فإنّه غير لائق للتوجه إلى الله.

(٩) الأعلى: ١٤ و ١٥.

المحاضرة السابعة عشر

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

ما جاء في المواضيع السابقة من أنَّ السعادة الحقيقة للإنسان تُحقق عن طريق التكامل الحقيقي والقرب الإلهي، والسبيل الوحيد إلى ذلك هو العبـادة، ومن أبـرز مظاهرها الصلاة، وقد جاء في الروايات: *«إنَّ الصلاة عمود الدين»*[2].

وإنَّ حقيقة الصلاة هي التوجه القلبي إلى الله، فكلَّما كان توجه القلب إلى الله أكثر كانت نتائج ذلك أعظم، وتؤكد كثير من الروايات أنَّه لا يقبل من الصلاة إلَّا المقدار الذي يتوجه فيه قلبياً إلى الله، فلربما يقبل الربع أوالثلث أو أقل من ذلك أو أكثر.

وفي بعض الروايات أنَّ المقدار الذي يصعد من الصلاة هو الذي

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) الوسائل ٣: ١٧ ، ٢٣.

يؤتى به بحضور القلب[3] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[4].

ويذكر في بعض الروايات أنّ بعض الحاضرين قالوا بعد سماعهم لهذا الحديث: ويل لنا، فإنّ صلاتنا باطلة، فقال الإمام: إنّ الله يجبر ذلك النقص بالنوافل التي تأتون بها[5].

هناك آيات في وصف المنافقين بأنّهم يؤدون الصلاة بكسل ورياء ولا يتوجهون إلى الله كما ينبغي[6].

والحاصل: إنّ أهمية الصلاة تأتي من كونها تقرباً وتوجهاً إلى الله، فيجب أن يؤتى بالصلاة بنشاط واستعداد ورغبة، يذكر في الروايات أنّ أمير المؤمنين علي(ع) كان عندما يريد الدخول في نافلة الليل فإنّه يغسل بدنه لكي يدخلها بنشاط.فكثير من الآداب والمستحبات تؤثر في حضور القلب والتوجه في الصلاة، فمثلاً على الرغم من أنّ نوم الظهيرة يساعد على النهوض بنشاط إلى صلاة الليل فإنّه يؤثر كذلك على نشاط وحضور القلب في صلاتي الظهر والعصر.

(٣) الوسائل: ٥١-٥٢.

(٤) فاطر: ١٠.

(٥) جامع الأحاديث ٢: ٢٥١. أبو حمزة الثمالي قال:« *رأيت علي بن الحسين عليهما السلام يصلي فسقط رداؤه عن منكبه، قال: فلم يسوه حتى فرغ من صلاته، قال: فسألته عن ذلك فقال: ويحك أتدري بين يدي من كنت! إنّ العبد لا يقبل منه من الصلاة إلا ما أقبل منها، فقلت: جعلت فداك هلكنا. فقال: كلا، إنّ الله تعالى متمم ذلك بالنوافل*». الوسائل ٢: ٦٨٨ المستدرك ١: ١٧٧.

(٦) ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يُرآءُونَ الناسَ ولا يذكرون الله إلّاقليلاً﴾*النساء*: ١٤٢. ﴿وَلا يَأْتونَ الصلاةَ إلّا وَهُمْ كُسالَى﴾.*التوبة*: ٥٤.

تذكر الروايات-كذلك-الآداب الجزئية للصلاة، وعلى سبيل المثال يذكر موضوع حضور القلب، فمثلاً يشار إلى الجلوس في التشهد بحالة التورك وأن لا يتكيء على الركبة والفخذ، أو أن يقسم ثقل البدن على مناطق السجود عند السجدة مثلاً، وأن يطهرها قبل الصلاة، وأن لا يدخل الصلاة إلّا وأعضاؤه طاهرة لكي يدخلها بحضورقلب، وأن ينظر إلى محل السجود في حال القيام أثناء الصلاة.. وآداب غير ذلك.

يذكر في هذه الآية الشريفة ﴿وَلا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾[7] عدة أقوال.

فالبعض يقول: إنَّها جاءت قبل تحريم الخمر.

وقال البعض: إنَّها تعني أن لا يقرب الصلاة من سكر عصياناً.

والبعض الآخر قال: إنَّها تعني أن لا تقربوا الصلاة عن غفلة وعدم انتباه إلى مفاد الصلاة.

وبالتوجه إلى ذيل الآية وهو ﴿حَتَّى تَعْلَموا ما تَقُولُونَ﴾[8] فالذي لا يدري ما يقول في صلاته فهو كالسكران[9]، وعلى أي حال يتضح من هذه النقطة أنَّه يجب أن يفهم المصلي ما يقول. فالعبادة: تختلف عن هذيان أهل السحر والشعوذة، فيجب أن يسعى المؤمن لتعلم معاني الصلاة، وأن ينتبه إليها أثناء صلاته ﴿أَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[10].

(٧) و (٨) النساء: ٤٣.

(٩) تفسير الميزان ٤: ٣٨٤ ، تفسير نور الثقلين ١: ٤٠٠.

(١٠) طه: ١٤.

فهل صلاتنا بهذه الكيفية؟

إنّ صلاتنا فاقدة الروح، والواقع أننا نقلد صلاة المصلين، عظماؤنا يقولون: إنّ شرط حضورالقلب هو أن تستحضر معنى كل ما تريد قوله قبل أن تلفظه، فإنّ تذكر معاني الجمل والأذكار في الصلاة يوجب لين القلب وخشوعه، خاصة لو تصور الإنسان عظمة الخالق وحقارة نفسه وسوأتها وضعتها أمام خالق الكون.

إننا ـ للأسف ـ قد مسخنا الحقائق كلها، وجعلنا الصلاة شبيهة بشعبدة السحرة وشعارات الأحزاب السياسية، ونتصور أنّ البكاء والخشوع في الصلاة ليست من شأن المؤمن الشجاع، لأنّ البكاء دليل الضعف والذل، كأننا نريد إظهار الشجاعة أمام الخالق في صلاتنا، ونسينا أنّ الصلاة هي عبودية وإظهار للذلة، فيجب أن لا يخاف الإنسان إلّا الله ولا يأمل غيره، وأن يعتمد عليه لا على غيره وإن فخر المؤمن في إظهار الذل أمام الخالق، فقد أوحى الله إلى عيسى(ع) «*وَاعْلَمْ أنَّ* سروري...»[11] المضمون يقول: إنّ سروري أن تخضع أمامي.

إنّ الله تعالى يعرف عباده المخلصين بأنهم **﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾**[12].

ويتبع ذلك بالآية **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾**[13].

(١١) الجواهر السنية، تأليف الشيخ الحر العاملي: ١٠٩.

(١٢) مريم: ٥٨.

(١٣) مريم: ٥٩.

المحاضرة الثامنة عشر

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1].

الركن المهم في جميع العبادات هو النية وقصد القربة، ولا يختص هذا الركن بالصلاة، بل يجب أن يؤتى بكل عمل عبادي بقصد القربة، والدافع من الإتيان به هو طاعة الله تعالى.

فما دامت العبادة ترتبط بقلب الإنسان. وبعبارة أُخرى: فإن العبادة من الأفعال القصدية، فكما أنَّ كل انحناء لا يعني الاحترام والخضوع لأنَّه من الممكن أن يكون عن استهزاء، فإنَّ العبادة ليست مجرد حركات وسكنات أوْ أذكار وأوراد، بل يجب أن تكون لإطاعة أمر الله.

فالصلاة التي يؤتى بها بنية التمرين والتعلم، أو للرياء والنفاق، أو للخوف من المسلمين، أو لاستقطاب أنظارهم، هي في الواقع ليست عبادة

(١) الكهف: ٢٨.

حقيقية.

يقوم الإنسان في بعض الأحيان بعبادة الله بقصد الطاعة، ولكن الدافع لتلك الطاعة هو الخوف من النار، فإنّه لو علم أنَّ تركه لها لا يوجب له العذاب، لما قام بها. فمن الواضح أنَّ المطلوب الحقيقي في هذه العبادة هو الخلاص من العذاب.

ويمكن أن يكون الدافع من الطاعة ـ أحياناً ـ هو الوصول إلى الجنة والنعماء الخالدة، فلو أنَّه علم أنَّ عبادته هذه لا توصله إلى ذلك الهدف لامتنع عن القيام بها. فالمطلوب الحقيقي في هذه العبادة ـ أيضاً ـ هو الجنة، وليس المقصود منها الله.

هناك درجة أعلى من ذلك، وهي أن يعبد الإنسان ربَّه شكراً لنعمائه وحباً له، فالذي يحب الله يجب أن لا يتوقع منه الجزاء والجائزة، بل يقوم بكل فعل في سبيل رضاه، ولو علم أنَّ رضا الله يتحقق في أن يحرق نفسه لحرقها.

يروى أنه عندما عرج بالنبي(ص) نودي أنه عندما أقبض روح حبيب لي وتطير من أيدي الملائكة لتصل إلى قاعدة العرش، فإني أقول لها مخاطباً: كيف تركت الدنيا؟ فإنَّها تجيب:«*إلهي عَرَّفْتَنِي نَفْسَكَ فَاسْتَغْنَيْتُ بِهَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ*»[٢].

«إِلٰهِي لَوْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ أُقَطَّعَ إِرَباً إِرَباً وَأُقْتَلَ سَبْعِينَ قَتْلَةً بِأَشَدِ مَا يُقْتَلُ بِهِ النَّاسَ لَكَانَ رِضَاكَ أَحَبُّ إِلَيَّ» فتخاطب الروح: هل تصدقين؟

(٢) إرشاد القلوب للديلمي، حديث المعراج بحار الأنوار ٧٧: ٢٧.

عبدي، إنك كنت بين الناس وقلبك لدي. فلن أجعل حجاباً بيني وبينك بعد الآن، وأذيقك طعم كلامي ولذته.

يروى أن العبادة على ثلاثة أقسام:

١ـ عبادة العبيد: وهي كطاعة العبيد وانصياعهم بسبب خوفهم من العقاب.

٢ـ عبادة التجار والمنتفعين، التي يؤدونها لغرض الحصول على الربح الثمين.

٣ـ عبادة الأحرار: التي لا تأتي نتيجة الخوف من العذاب أو الطمع في الجزاء، بل تأتي عن الحب والشكر للنعم الإلهية(٣).

يقول الإمام علي(ع) في كلام له«*إلهي ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نارِكَ، وَلا طَمَعاً في جَنَّتِكَ، بَلْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتُكَ*»(٤).

ولكن الذي يقول هذا الكلام أمام الله هو أمير المؤمنين(ع)!

فالبعض يتصور أنَّ كل عمل لم ينبع من خوف من النار أو طمع في الجنة فإنَّ له الأجر العظيم، فيجب الانتباه إلى أن عدم الخوف من النار وعدم الطمع في الجنة يأتي أحياناً من ضعف الإيمان أو عدمه، وفي هذه الحال يكون الدافع للعمل الصالح إرضاء العواطف الذاتية، وهذا

(٣) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: العبادة (إنَّ العباد) ثلاثة: قوم عبدوا الله عزوجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عزوجل حباً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة. *الوسائل* ١: ٥٤.

(٤) العروة الوثقى، كتاب الصلاة في فصل نية الصلاة جامع السعادات: ١١٥.

العمل لا يحضى بثواب المؤمن الذي يدفعه الخوف من النار أو الطمع في الجنة فحسب، بل لا يكون له أي تأثير في السعادة الأُخروية.

فمثلًا لو أننا زرنا مريضاً وتأثرنا لمرضه، وهرعنا لمساعدته، فلو كانت مساعدتنا بدافع إرضاء العواطف الذاتية والاجتماعية، فعلى الرغم من قيامنا بعمل صالح ولكنه لم يكن بسبب إيماننا وحبنا لله واليوم الآخر، فإنَّ ذلك العمل لن يكون له دور في سعادتنا الأخروية.

فالعمل الصالح المؤثر في السعادة الحقيقية، هو ذلك العمل الذي ينبع من الإيمان بالله واليوم الآخر، وخير الأعمال ما كان خالصاً لوجه الله، ولم يكن لأجل الحصول على الثواب والعوض، أو بسبب الخوف من العذاب والعقاب.

فيجب أن يؤمن الإنسان بالدرجة الأولى بالله لكي يقوم بالأعمال المؤثرة في سعادته، وبغير ذلك فهو كالحيوان أو أرذل منه لأنَّ كمال الإنسان ـ كما أوضحنا سابقاً ـ يكون بارتباطه بالله، فالذين لا يعتقدون بالجنة والنار ليسوا بشراً في حقيقتهم.

يعبر القرآن الكريم عن الكافرين بأنَّهم من أرذل الأحياء وليس من أرذل الناس ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُوْنَ﴾[٥].

إنَّ الذي يؤمن يستطيع أن يقوم بالعبادة بأنواعها الثلاثة، وأفضل العبادات ما كان عن حب الله ورضاه، قال الإمام الصادق (ع) «وَلٰكِنِّيّ أَعْبُدُهُ

(٥) الأنفال: ٥٥.

حُبّاً لَهُ»[٦] ـ (ليس بسبب الثواب والعقاب).

(٦) قال الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: إنَّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه، ولكني أعبده حباً له عزوجل فتلك عبادة الكرام، وهو الأمن بقوله عزوجل... فمن أحب الله عزوجل أحبه الله ومن أحبه الله تعالى كان من الآمنين. *الوسائل* ١: ٤٦.

المحاضرة التاسعة عشر

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1].

كمال الإنسان في قربه من الله، ويتحقق هذا القرب على أثر عبادته، وأسمى العبادات الصلاة، وتبدأ الصلاة بالتكبير (الله أكبر).

لنوضح هذه العبارة بمقدارٍ ما... فالمفضل عليه قد حذف في هذه الجملة، ويعني ذلك أنَّ عظمة الله لا تخضع للقياس لكي نقارنها ونقول: إنَّ الله أكبر من أي شيء. والواقع أنَّ عدم ذكر المفضل عليه وتركه مبهماً يزيد من عظمة الموضوع، فما دامت عظمة الله غير قابلة للإدراك فهل يصح أن نريح أنفسنا وأن لا نتعبها في سبيل رفع مستوانا في المعرفة؟

إنَّ ذلك كمّا أن يقول أحدٌ: بما أنني لم أملك الكرة الأرضية فإنني أُساوي الملياردير الفلاني في الثروة، لأنَّه هو بدوره لا يملك الكرة الأرضية.

من الطبيعي أنَّ لله عباداً قد عرفهم نفسه، وحصلوا على معارف

(١) المدثر: ٣.

حضورية وشهودية كلٌّ حسب قابليته. وجاء في الروايات أنَّ الله أكبر من أن يعرف بخلقه بل إنَّ خلقه يعرفون به[2].

﴿اللهُ نُوْرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3].

فإنَّنا نرى الأشياء بنور الشمس، ولكننا لا نرى الشمس بذاتها.

جاء في رواية المعراج«*وَأَفْتَحُ عَيْنَ قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ حَتّىٰ يَسْمَعَ بِقَلْبِهِ وَيَنْظُرَ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ جَلاَلِيْ وَعَظَمَتِي*»[4].

ولَكنا لا نعرف الله بنفسه، وعلينا أن نعرفه بخلقه، بان هذه التكوينة العظيمة لا يمكن أن تكون بدون خالق، أو أن ننظر فى خلقة أنفسنا ونفكر بأنَّ هذه الأجهزة الدقيقة المعقدة لا يمكن أن توجد بحد ذاتها، ومن المؤكد أن يكون وراء تنظيمها خالق حكيم.

فلو أردنا معرفة عظمة الخالق لوجب علينا التعرف على عظمة مخلوقاته، فما دمنا نتعرف على الله من معرفة مخلوقاته، فيجب ـ أيضاً ـ معرفة عظمته من معرفة عظمة مخلوقاته.

كيف نتفكر في عظمة المخلوقات؟

من الأفضل أن نبدأ بأنفسنا، وأن نقارن وجودنا بجزء من الأرض، فلو وقفنا أمام جبل (دماوند) لوجدنا أنفسنا صغاراً أمام هذا الجبل العظيم.

(٢) ...إنَّ الله جل جلاله أجل وأعز وأكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله.*اصول الكافي* ١: ٨٦

(٣) النور: ٣٥.

(٤) إرشاد القلوب للديلمي: ٣٣٨.

ولكن هذا الجبـل بالنسبة للأرض كنسبة نتوء البرتقالة لنفس البرتقالة، وإنَّ الأرض بعظمتها تكون مقابل الشمس بتلك النسبة بحيث لو فرضنا أن الشمس تمثل كرة قطرها متر واحد لكانت الأرض تمثل حبة من فاكهة الكرز.

والشمس بدورها تقع في منظومة هي جزءٌ من الكون ويتكون هذا الكون من منظومات كبيرة تحتوي كل منها شمساً ونجوماً وأقماراً، وأقربها إلى شمسنا نجمة حجمها يساوي أربع مائة مرة حجم الشمس، وتبعد عنها بأربع سنوات ضوئية، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها النور خلال عام واحد. وبالنظر إلى أنَّ الضوء يطوي في كل ثانية ثلاثمائة ألف كيلومتر يتَّضح أنَّ السنة الضوئية ما أعظم مسافتها! وبالإضافة إلى هذا المدار هناك خمسمائة مليون مدار آخر.

والآن يجب أن نعلم أنَّ كل هذه العظمة المدهشة محدودة، وعظمة الله لا حدود لها، وأنَّه لا نسبة بين المحدود واللا محدود.

إذن فمن أجل الوصول إلى معرفة عظمة الخالق يجب أن نتعرف على عظمة المخلوقات، وأن نستحضر عظمة الله وحقارة وعدمية أنفسنا أثناء الصلاة قدر الإمكان.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «*من وقف للصلاة وكبر ولم ينتبه إلى عظمة الله فإنَّ الله يقول: ياعبدي هل تخدعني؟ بعزتي وجلالي لن*

أذيقك طعم ذكري ومناجاتي ولأحرمنك من لذة قربي»[٥].

(٥) قال الصادق عليه السلام: إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا وما فيها...فإنّ الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: ياكاذب أتخدعني؟ وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولأحجبنّك عن قربي والمسارة بمناجاتي.. *مصباح الشريعة*: ١٠ـ١١. *المستدرك* ١: ٢٦٣، من *مصباح الشريعة*.

المحاضرة العشرون

من أجل أن نتعرف على فوائد الصلاة وبأحسن صورة، يجب أن نحصل على مفاهيمها، وأن نفهم القصد من هذه الأعمال والأذكار، يجب أن نقرأ الحمد بعد التكبير والتي تبدأ بـ(بسم الله).

البعض من أهـل السنة يعتقدون أنَّ البسملة ليست جزءاً من السورة ويقرأون الحمد بدون البسملة، وقد ورد في الروايات أنَّ أهل البيت(ع) ردوا ذلك وقالوا عن المسقط لها: إنَّه أسقط أكبر آية في القرآن[1].

وروايات أُخرى كثيرة وردت في أهمية هذه الآية. كما جاء أنَّ قربها من اسم الله الأعظم أقرب من سواد العين إلى بياضها[2].

ويجب أن يبتدىء كل عمل بـ(بسم الله) حتى في الشعر[3].

ولو أنَّ مؤمناً لم يبتدىء عملاً بـ(بسم الله) فإنَّ الله يبتليه حتى ينتبه إلى ذلك[4].

(١) و (٢) تفسير الميزان ١: ٢٠ ـ تفسير نور الثقلين ١: ٥ ـ ٦.

(٣) و (٤) تفسير نور الثقلين ١: ٦. المستدرك ١: ٢٧٥.

قول (بسم الله) في بعض الأحيان يكون واجباً، مثل ذبح الحيوانات، فلو لم تذكر البسملة عند ذبح الحيوان عمداً لحرم أكله.

فمن أجل أن نفهم هذه الآية وأهميتها وتأثيرها على الحياة، يجب أن ننتبه إلى أن منبع جميع الأعمال الاختيارية للإنسان هي أفكاره ومعتقداته ومبادؤه، وأن كل عمل ينبع من العقيدة والمبدأ فإنّه يحمل طابعه وعلاماته.

إنّ الإنسان الموحد الذي يؤمن بالله الأحد، ويعتبر كل شيء فقيراً محتاجاً إلى الخالق، فإنّه لا يعتبر لشيء قيمة وعظمة بشكل مستقل، سواء لنفسه أو لغيره، لذلك فإنّ أعماله تكون لله وتبدأ باسمه، وعلى هذا الأساس فإنّه يلون أعماله بالصبغة الإلهية ويمنحها قيمة واحتراماً.

فما دام وجود كل شيء ملكاً لله وحده، فإنّ جميع متعلقاته ستكون لله أيضاً، فكيف يمكن اعتبار وجود وعظمة مستقلة لغير الله، والعمل على أساس ذلك الاعتبار؟

علمنا من المواضيع السابقة أنّ سعادة الإنسان في عبوديته، وأنّ أعمالنا لا تكون مؤثرة في كمالنا وسعادتنا الحقيقية إلّا أن تكون بعنوان العبادة، وبعبارة أُخرى: أن تصطبغ بالصبغة الإلهية، وإلّا فستتبعها حسرة شديدة في الحياة الأخرى.

فإنّ قول (بسم الله) في بداية كل عمل هو في الحقيقة بمثابة وضع علامة إلهية على ذلك العمل وإلصاقه بالعالم الإلهي، فلو ربطنا عملاً ما بالعالم الإلهي فإنّه سيحصل على قيمة وصلاحية الخلود بمقدار ما يرتبط

بالله، وإنَّ كل شيء لا يرتبط بالله فهو باطل وفارغ المحتوى.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ هُوَ البَاطِلُ﴾[٥].

فالله تعالى حق وأصل الحقيقة يختص به، وكون الشيء حقيقياً وعـدم كونه باطلاً يتوقف على الإِرتباط به تعالى، والعزة والعظمة التي يتوهمها البعض بدون الانتساب إليه هي تصورات مجرَّدة عن الحقيقة، وستكشف ستائر هذه التصورات يوماً ما وتظهر الحقيقة، وتظهر للعيان ذلة أولئك.

تفسير بسم الله الرحمن الرحيم:

الله ـ الرحمن ـ الرحيم ـ هي أسماء الله. الرحمن والرحيم كلاهما من مصدر الرحمة، الفرق بين الرحمن والرحيم، هو أنَّ الرحمن يختص بالله ولا يستعمل لغيره، ولكن الرحيم يمكن استعماله لغيره.

الفرق الآخر من الناحية الأدبية، وهو أنَّ الرحمن لا يحتاج إلى مضاف إليه أو لاحق له، بينما يمكن جعل مضاف إليه أو لاحق للرحيم فلا يقال مثلاً (إنَّ الله رحمن بالناس) ولكن يمكن القول (إنَّ الله رحيم بالناس).

الفرق الآخر هو أنَّ الرحمن مطلق، حيث يشمل الوجود الخارجي كله، ولكن الرحيم يختص بالمقصود من الرحمة فيجب أن يكون له

(٥) الحج: ٦٢.

موضوع.

الفرق الآخر هو أنَّ الرحمن يشمل المؤمن والكافر، ولكن الرحيم يختص بالمؤمن.

الفرق الآخر هو أنَّ الرحمن يشمل الدنيا والآخرة، ولكن الرحيم يختص بالآخرة.

فمن المحتمل أن تكون هذه الموارد ناتجة من أنَّ كمال الرحمة بالنسبة للمؤمن تتجلى في الآخرة، وإلّا فقد وردت كلمة (الرحيم) في القرآن حول موضوع دنيوي يشمل المؤمن والكافر ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الأَرْضِ إِلّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٦] ومن الواضح أنَّ هذه الرحمة في الدنيا تشمل المؤمن والكافر.

وعلى كل حال يمكن القول في مجال الفرق بين الاسمين: إنَّ الرحمن هو باعث الفيض الوجودي، وإنَّ الرحمة الرحمانية تشمل جميع الموجودات، ولكن الرحيم هو الذي يبعث برحمته من أجل بقاء الوجود، وبذلك يخص موجوداً برحمته.

وعلى هذا الأساس فإنَّ خلقة الإنسان والعالم من الرحمة الرحمانية، والرزق والهداية بواسطة العقل والوحي وبالتالي إيصاله إلى الكمال الحقيقي والسعادة الأبدية، كل ذلك من الرحمة الرحيمية.

أمّا بالنسبة للاستفادة من هذه الآية الشريفة، ومن التوجه إلى هذه الأسماء الحسنى، فيجب أن ينتبه الإنسان إلى أهمية صفة الرحمة وأن

(٦) الحج: ٦٥.

يسعى للتخلّق بهذا الخلق الإلهي، فيكفي لإثبات أهمية هذين الاسمين أنَّ يبتدىء القرآن بهما، وأن يتصدرا كل سورة معاً. فلو أراد الإنسان أن يتشبه بصفات الله لوجب عليه أن يكون رحيماً بالنسبة لكل المخلوقات، وأن لا يصدر منه أي نوع من الأذى لأي موجود ذي شعور.

يقول الإمام علي(ع) في نهج البلاغة: *«والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة على أن أسلب نملة جُلْبَ (قشر) شعيرة لما فعلت»*[7].

إنَّ الإسلام يريد من أتباعه أن يبتعدوا عن الظلم، وأن يرحم بعضهم بعضاً، فإذا ابتدأ أحدٌ عمله بالرحمانية والرحيمية فإنَّه لن يظلم أحداً في ذلك العمل، لأنَّ العمل إبتدأ باسم الرحمن الرحيم، ويجب أن تظهر عليه آثار هذه الرحمانية والرحيمية لكي تتناسب هذه البضاعة مع عنوانها.

لو دققنا النظر في الرحمة الإلهية لوجدنا أنَّها بلا عوض، فمن يريد أن يتشبه بالله من حيث الصفات يجب أن لا يتوقع الأجر والجزاء من جرّاء خدماته التي يقدمها إلى الناس **﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾**[8].

إنَّ شخصاً كهذا لا يتألم من نكران الجميل، ولا يترك عمله الخيري بعذر أنَّ الناس لا يعترفون بالجميل.

(٧) نهج البلاغة، ط.فيض الأسلام: ٧٠٥. والله لو أعطيت....

(٨) الإنسان: ٩.

موضوع صفة الرحيم هو إيصال الموجودات إلى الكمال، وقد بعث الله الأنبياء من أجل تكامل البشر، وقد كلفهم بأنّ يبذلوا قصارى جهدهم في سبيل هداية الناس. فمن أجل الاستفادة من رحيمية الله يجب هداية الناس، ومن خلال هداية الآخرين إلى السعادة الأُخروية يمكن التشبه بالصفة الرحيمية. فإنّ أكبر خدمة يقدمها الإنسان لأخيه هي أن يبين له الهدف من الخلقة والوجود، لكي ينبهه أين يجد كماله؟ وما هو طريق الوصول إليه؟

إذن فهذه الأسماء الشريفة ـ بصورة عامة ـ تفهمنا أنّ كل شيء لله والجميع عبيده، وهو الذي يكون معبوداً وحده، وهو الذي أفاض الوجود على كل شيء بالرحمة الرحمانية، وهو الذي يقودهم إلى الكمال المطلوب بالرحمة الرحيمية، ويهيء سبل وصولهم إلى الكمال.

إنّ أي عمل يحمل عنوان التعظيم ـ سواءاً كان لشخص الإنسان أو غيره ـ فإنّه في الواقع نوع من الشرك، فحتى احترامنا للرسول(ص) والإمام هو لأنهما عبيد الله. واحترامهم في واقع الحال إنّما هو احترام لله، والذي يجب أن يحترم ويعظم بصورة مستقلة وبعبارة أُخرى (يعبد) هو الله لا غيره، وإنّ أي عمل يقوم من أجله وبعنوان العبودية له، فإنّه سيخرج عن إطار الفراغ الفكري وسيكون تافهاً بنفس النسبة التي يكون لغير الله، وإنّ قول (بسم الله) هو إلصاق علامة إلهية على ذلك العمل.

ولكننا يجب أن ننتبه لكي لا نضع علامات مزيفة على أعمالنا، لأنّ

العمل الذي يقوم على أساس الهوى والميول النفسية والرغبات الشيطانية وبهدف الرياء والشهرة أو التقرب إلى الطاغوت، فإنّه عمل غير إلهي، ولا يمكن إعطاؤه قيمة بمجرد قول (بسم الله) بل إنّ ذلك يعتبر خيانة وخدعة وتزويراً، وإنّ الله ناظر لأعمال عباده وإنّه خبير بما في القلوب.

المحاضرة الحادية والعشرون

﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾[1].

إنَّ لكلمة (الحمد) دلالة على أنَّ كل التحميد هو لله، فكلما قام أي شخص بعمل صالح فإنَّه يجب أن يشكر الله ويحمده، فمن أجل القيام بعمل واحد يجب توفّر آلاف بل ملايين الشروط، وكل تلك الشروط هي من نعم الله، مثل أصل الوجود، والحياة، والعقل، والإدراك، والمقدرة الجسمانية، والتي يشمل كل منها أنواعاً عديدة من النعم الإلهية.

إذن فالأعمال الصالحة كلها لله، وقد ورد في بعض الأدعية ما معناه «إنني لو أردت أن أشكر نعمة واحدة من نعمائك طول عمري ما استطعت»[2] لأنَّ قول الحمد لله يحتاج إلى شكر، ومن أجل شكره يحتاج إلى شكر أيضاً وهكذا....

(١) الفاتحة: ١.

(٢) الصحيفة السجادية الدعاء ٣٧ ـ دعاؤه (ع) في الشكر: اللهم إنَّ أحداً لا يبلغ من شكرك غاية إلَّا حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً .. فأشكر عبادك عاجز عن شكرك ...*الصحيفة السجادية، الدعاء: ٣٧*.

في الوقت الذي نحن نغوص في كل لحظة في ملايين من نعم الله،

فكل إحسان يصلنا هو من الله حتى وإن كان من عملنا ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[3] لأنَّ أسبابه ومقدماته كانت بتقدير الله وصنعه.

عندما يقوم المؤمن بعمل صالح، فإنَّه يعتبر نفسه مديناً لله، لأنَّ جميع مسببات ذلك العمل من عند الله، وأنَّ توفيقه لأداء ذلك العمل كان من الله.

يقول القرآن إنَّ الناس يمنون عليك أنْ آمنوا ـ قل إن الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان، فبملاحظة هذا الموضوع نعرف أن المؤمن لا يتباهى بعمله، بل إنَّه يتحمل مِنَّة الله أن أعطاه التوفيق لذلك العمل الصالح.

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بعد لفظ الجلالة ذكرت عدة صفات لله تعالى، وأول صفة هي أنَّ الله ربّ العالمين، فإنَّ هذه الصفة ترد على الذين تصوروا أنَّ هناك أرباباً من غير الله يشتركون في إدارة الكون، وكل منهم يختص بمجال معين.

(الربّ) يعني المالك المدبر، وكان البعض يعتقد أن الخالق الواحد للعالم هو الله، ولكن إدارة الكون تتم بواسطة أرباب وآلهة آخرين هم شركاء (لله) في تدبير العالم، وكانوا يعملون لها تماثيل يسمونها بأسمائها ويقومون بعبادتها.

(٣) النساء: ٧٩.

لم يكن المشركون يعتقدون بأنّ الأصنام هي التي خلقت العالم، بل كانوا يعتقدون أنّ الله هو خالق الكون، والأصنام مديرة الكون وهي التي تدبر شؤونه.

هناك نظريتان متقابلتان في حدّ الإفراط والتفريط حول تدخل وتأثيرَ الآخرين في إدارة العالم، فالمشركون يقولون: إنّ الله خالق الكون، وقد أوكل إدارة العالم إلى عدة آلهة، ولهذا فإنّهم عندما كانوا يريدون هطول المطر كانوا يقومون بعبادة إله المطر، أوأنهم كانوا يعبدون إله النصر في حالة الحرب، وإله الماء (البحر) عندما يسافرون بحراً لحفظهم سالمين.

هذا هو نوع من التفكير وهو جعل آلهة مستقلين على العالم يتدخلون في إدارة شؤون العالم بدون إذن من الله.

النظرية المقابلة لهذا التفكير هي أنّ الله يدبر الأمر وحده، وأنّ كل تدخل في شؤون العالم ـ حتى وإن كان غير مستقل وبإذن من الله ـ فإنّه غير صحيح، وأن الإيمان بذلك يعتبر شركاً، مثل الوهابيين المنتسبين إلى الإسلام، الذين يقولون: إنّ الاعتقاد بالولاية التكوينية للأنبياء والأولياء هي من الشرك، وإنّ الذهاب إلى بيت النبي والإمام وطلب الحاجة منهم هي شرك كذلك. لأنّ ـ في رأيهم ـ لا أحد يستطيع التدخل في شؤون الحياة مثل تدبير العالم وإعطاء الرزق وقضاء حاجات العباد إلّا الله.

في الوقت الذي يقر القرآن الكريم وينسب إحياء الموتى وإبراء

المـرضى وتبصرة العمي إلى النبي عيسى(ع) ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[٤].

فهل أنَّ الذين كانوا يذهبون إلى النبي عيسى(ع) من أجل شفاء المرضى أو إحياء الموتى... كانوا مشركين؟ في حالة كهذه يجب القول بأنَّ الله الذي أعطى لعيسى(ع) هذه القدرة هو الذي يدعو الناس إلى الشرك.

ولكن يجب القـول بأنَّ المؤثر المستقل في الخلقة وتدبير الكون وتـطوير العـالم هو الله وحده، ولكن توجد هناك سلسلة من المؤثرات الـطبيعية ومـا وراء الـطبيعـة تؤثـر في مجريات العـالم بإذن الله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[٥].

فالربوبية هي التأثير المستقل في تدبير الكون مع الصلاحيات المطلقة التي تختص بالله فقط، سواء في عالم الغيب أو الشهود، وسواء في عالم الطبيعة أو ما وراء الطبيعة، وسواء في الدنيا أو الآخرة، وسواء في التكوين والخلقة أو التشريع والتقنين.. وبصورة عامة فإنَّ تدبير أمور العالم صغيرها وكبيرها بيد الله وحده، ولكن ذلك لا يتنافى مع أن تشع الشمس ونورها بإذن الله، أو أن النار تحرق الأجسام، أو تنزل الملائكة بالرحمة على الناس وتشفع لدى الله. ولا يتنافى كذلك مع أن يقوم أولياء الله بإذنه بإحياء الموتى وشفاء المرضى والشفاعة للناس.

(٤) المائدة: ١١٠.

(٥) النازعات: ٥.

﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾.

إنَّ التدبير وتكامل كـــل الموجودات بيد الله، فإنَّ هذه التربية تماثل تربية البذرة التي تبذر في الأرض، وتنمو حسب القوانين الطبيعية، وهذا هوالتدبير التكويني الذي تفقد البذرة والشجرة إختيارها فيه، فإنَّ هذا النوع من التدبير موجود بالنسبة للإنسان أيضاً.

ولكن التـدبـير الآخـر هو التشـريعي الـذي يرتبط بالأفعال الاختيارية للإنسان، والذي يعتمد تكامل الإنسان عليه.

وهذه إحدى النقاط التي يفترق فيها المذهب الديني عن المذاهب المادية، فاولئك يقولون: إنَّ جميع الظواهر - حتى التكامل - جـبرية لا إختيار فيها.

ولكن المذهب الديني يقول: إنَّ التكامل اختياري، وإنَّ التربية وتـدبـير الجـوانب الاختيارية للإنسان تتم عن طريق الهداية، وتوفير الوسائل اللازمة لكي يختار كل إنسان بإرادة نفسه الطريق الذي يحقق له السعادة أو يقوده إلى الشقاء، وأن يختار ما يريد فإما أن يسلم وإما أن يكفر ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٦).

﴿إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ إمَّا شَاكِرَاً وَإمَّا كَفُوْرَاً﴾(٧).

﴿إنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً فَإنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ

(٦) الكهف: ٢٩.

(٧) الإنسان: ٣.

﴿حَمِيْدٌ﴾[8].

فلو كفر جميع الخلق فإنهم لن يضروا الله شيئاً، فالله يهدي ويوجه الإنسان إلى الطريق الصواب ولا يجبره على سلوك طريقه، فإنسانية الإنسان هي أن يختار طريقه بنفسه، وإلّا فإنَّ الله يستطيع أن يجبر الناس على أن يسلكوا طريق الهداية ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾[9].

فالمؤمن هو الذي يعتبر أن المؤثر الوحيد في الكون هو الله، وأن يتوكل عليه في جميع شؤون الحياة، وأن يعتبر الأمر والنهي والتقنين والتشريع والطاعة المطلقة كلها لله، فمن يعتقد أنَّ الله لا يملك وضع القانون، أو يعتقد أنَّ الآخرين يستطيعون وضع القانون بصورة مستقلة فإنَّه مشرك.

إنَّ التوحيد الربوبي يقضي بأن نعتقد أن الله هو المؤثر في الحياة، ويجب طاعته وحده في كل الأمور بلا جدال، وطاعة من أمر هو بذلك، ولايكون ذلك إلّا للنبيّ(ص) ووكلائه المعصومين ﴿أَطِيْعُوا اللهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[10].

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[11].

وإنَّ طاعة حاكم الشرع الذي ينصب بشكل خاص أو عام من قبل

(8) إبراهيم: 8.

(9) النمل: 9.

(10) النساء: 59.

(11) النساء: 80.

الإمام لهي في الواقع طاعة الإمام.

المحاضرة الثانية والعشرون

شرحنا في تفسير البسملة مفهوم (الرحمن والرحيم) ويحتمل أن تكرار ذلك إشارة إلى أنَّ الربوبية الإلهية هي منشأ تلك الرحمة الإلهية، فالله لا يحتاج إلى المخلوقات ولا يريد ثمناً لنعمائه. الذات المقدسة للخالق تقضي بالرحمة للمخلوقات، فإيجاد المخلوقات رحمة من جانب الله، والرزق والكمال كذلك رحمة، وهذه الرحمات تشمل جميع المخلوقات.

ولكن هناك رحمة خاصة بالإنسان.. فتكامل البشرية لا يأتي من ذات الناس، بل يجب أن يأتي عن اختيارهم، وقرينة أن يكون الإنسان مختاراً في وصوله إلى الكمال هي أن تكون أمامه عدَّة طرق ليختار أحدها، فلو كان هناك طريق واحد ـ وهو الصالح ـ لما بقي مجال للاختيار، فلو كانت الطرق كلها تؤدي إلى الجنة لما كان هناك فرق بين الصالح والسيء من العمل، إذن يجب أن يكون هناك طريقان أحدهما صالح والآخر سيء.. أحدهما ينتهي إلى السعادة الخالدة، والآخر ينتهي إلى العذاب والشقاء الخالد، فإنَّ هذا الاعتقاد الذي يمكن أن يؤثر في اختيار الطريق

السعيد الصالح، بمعنى أن يعتقد الإنسان أنّه سيحاسب على أعماله يوماً ما، وسيجزى الجزاء الذي يناسب أعماله وأفعاله وتصرفاته، فالذين كفروا وأفسدوا إنّما فعلوا ذلك لأنّهم نسوا يوم الحساب ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُضِلُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾[1].

فالذي يحفظ الإنسان من الضياع والسقوط هو التفكير بيوم الجزاء.

كان البعض من المشركين يعتقد أن الإنسان بعد وفاته سيحيا من جديد، وأن هناك عالماً آخر، ولكنهم يعتقدون أن نظام تلك الحياة هو نفس النظام في هذه الدنيا، ولذلك فعندما كانوا يدفنون جثث الموتى كانوا يضعـون معهم المـأكل والملبس والذهب والمجوهرات والسيف والدرع وغيرها، لكي يستخدموها بعد أن يستعيدوا حياتهم من جديد.

فمجـرد الاعتقاد بأنّ هناك عالماً آخر لا يفيد الإنسان بالقيام بالأعـمال الصـالحـة، بل الـذي يدفع الإنسان إلى العمل الصالح هو الاعتقاد بيوم الجزاء، من هذه يتضح ارتباط (الرحمن الرحيم) بـ(مالك يوم الدين).

فالله خلق المـوجـودات برحمتـه الـرحمـانية، وبرحمته الرحيمية يوصلهم إلى الكـمال.. ولكن هنـاك رحمة خاصة للإنسان وتعتبر خلقة الإنسان ـ أصلًا ـ من أجل نيل تلك الرحمة ﴿وَلا يَزَالُوْنَ مُخْتَلِفِيْنَ إِلَّا مَنْ

(١) ص: ٦٢.

رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٢].

فالله خلق الإنســان من أجل أن يرحمه، وتلك الرحمة هي التي يصلها الإنسان عن طريق الأفعال الإختيارية.

وفي الـواقـع هي جزاء العمـل الصـالح، فرحيمية الله بالنسبة للإنسان تسبب أن يكون هناك يوم لجزاء الإنسان ﴿إعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الـدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْـوٌ وَزِينَـةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾[٣].

﴿وَمَا الحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورْ﴾[٤].

ففي الحياة الآخرة شكلان من الحياة يختلف أحدهما عن الآخر، أحـدهما العذاب، والآخر النعماء ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانِ لَوْ كَانُـوا يَعْلَمُونَ﴾[٥] فلو اعتقد الإنسان بهذا العالم، فإنّه سيكون دائم التفكير في الحساب، ويسعى لكي يستخدم كل نَفَس وطرفة عين وكل خطوة وكـل طاقة يملكها في سبيل حياته الأخروية، وإنَّ الَّذين نالوا الشقاء إنَّما وصلوا إلى هذه الحال لأنَّهم نسوا يوم الحساب ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾[٦].

(٢) هود: ١١٨ـ١١٩.

(٣) الحديد: ٢٠.

(٤) الحديد: ٢٠.

(٥) العنكبوت: ٦٤.

(٦) ص: ٢٦.

إنَّ الملاحظة التي تشير إليها الآية الشريفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ مؤملة من جانب، ومنذرة من جانب آخر، وإنَّ أهم شيء يدفع الإنسان إلى العمل والمثابرة هو الأمل في الربح والخوف من الضرر، ولذلك فقد جعل الله أنبياءه مبشرين بالنعماء ومنذرين من الضراء ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ﴾[7].

أو إنَّه بوصف يوم القيامة واللقطات المروعة من العذاب القاتل الذي يفوق خياله وتصوره، يوجد في قلب الإنسان خوفاً عجيباً ويمنعه من ارتكاب الأعمال القبيحة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيْمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَاهُمْ بِسُكَارَىٰ وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيْدٌ﴾[8].

ولكن لو ظن الإنسان أنَّ عالم الآخرة هو نسخة من هذا العالم، ومن سعد في هذه الدنيا فهو سعيد في الآخرة، ومن شقي في هذه فهو شقي في تلك، فإنَّ ذلك لن يكون باعثاً على التقوى واجتناب الأعمال القبيحة وترك الظلم والعدوان والاعتداء على حقوق الآخرين، وإنَّ الأثر الذي تركه هذا الاعتقاد على أصحابه هو أنهم دفنوا الأسلحة والمجوهرات مع موتاهم لكي يستمروا في طريقهم الظالم من جديد بعد أن يفيقوا من موتهم.

فبعض المتحضرين والمثقفين قالوا: إنَّ من لم تكن له حياة مادية

(٧) النساء: ١٦٥.

(٨) الحج: ١ـ٢.

مرموقة لن تكون له حياة سعيدة في الآخرة أيضاً. ومن كان في هذه أعمى فهو في تلك أيضاً أعمى، وقد عبّروا عن هذه النظرية بوحدة المعاش والمعاد والدنيا والآخرة.

وكلّ ذلك لا يقبله الإسلام، إنّ القرآن يقول ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾[9] ولكن المقصود من هذا العمى هو عمى القلوب، كما يقول في هذه الآية ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَىٰ القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[10].

ويقول في آية أخرى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكَىٰ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْراً قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذٰلِكَ اليَوْمَ تُنْسَىٰ﴾[11].

فالمحصلة: هي أنّ سعادة الآخرة تأتي من خلال الإيمان والعمل الصالح، يعني العمل الذي يؤتى به من أجل مرضاة الله ﴿ذٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَ اللهِ﴾[12].

وإلّا فإنّ أكبر الخدمات الاجتماعية إن لم تكن لوجه الله، وكانت في سبيل الشهرة والجاه والمكانة الاجتماعية والتقدم الوطني، وكانت نابعة

(٩) الاسراء: ٧٢.

(١٠) الحج: ٤٦.

(١١) طه: ١٢٤ـ١٢٥.

(١٢) الروم: ٣٨.

من الرياء... فإنّها لن تحضى بأصغر قيمة، ولن ينال صاحبها يوم القيامة سوى الحسرة والندم.

المحاضرة الثالثة والعشرون

تقسم العبادة ـ كما قلنا في المحاضرات السابقة ـ إلى ثلاثة أقسام:

عبادة العبيد الذين يعبدون خوفاً من العذاب.

عبادة المنتفعين الذين يعبدون بأمل الحصول على الربح والجزاء.

والقسم الثالث هم أولياء الله الذين يعبدونه لأنَّهم يحبونه، أو لأجل شكر نعمائه، أو لأنَّهم وجدوه أهلًا للعبادة.

فالدوافع للعبادة ثلاثة: الخوف ـ الأمل ـ الحب ومعرفة الحق.

ويقسم العابدون حسب نوع العبادة إلى ثلاثة أقسام:

فمنهم من يعبد الله لكي يأمن عذاب الله، فإنَّ الذي يحرك هؤلاء للعبادة هو التوجه إلى (مالك يوم الدين) بصفة الإشعار بيوم الحساب والجزاء.

ومنهم من يعبد الله من أجل الوصول إلى الجنّة والتنعم بنعم الخالق، فإن التوجه هنا إلى (الرحمن الرحيم) بالنسبة إلى هؤلاء بصفة

البشرى بالرحمة هو المحرك لعبادتهم.

ومنهم من يعبده لحبه له وشكراً لنعمائه، لا خوفاً من النار ولا حباً للجنـة، فإنَّ لهؤلاء تكفي آية ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْن﴾ لتكون دافعاً للعبادة، ويتضح من ذلك تناسب هذه الأسماء الشريفة مع جملة (إياك نعبد).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

ومن ناحية أُخرى هناك تقسيمات للعبادة، فلأنَّ العبادة عمل قلبي ويجب أن يقارنها التوجه والوعي، ولو أنَّ أحداً قال (سبحان الله) مثلًا بلا توجه أو قال (لا إله إلَّا الله) بلا وعي، فإنَّ كلامه هذا لا يحسب من العبـادة، لذا يمكن تقسيم العبـادة على أسـاس الكمية والكيفية إلى درجات، وكلما كان حضور القلب أكثر فإنَّ قيمة العبادة ستكون أكثر، وقـد ورد في الـروايات أنَّه لا يقبل من الصلاة إلَّا مقدار ما أُقيم منها بحضور القلب[1]، فالصلاة أو العبادة التي تستغرق دقائق معدودة، لو كان مقدار دقيقة أو أكثر منها بحضور القلب، فإنَّ ذلك المقدار يقبل فقط، هذا من حيث الكمية والمقدار.

من جهة أُخرى فإنَّ حضور القلب له درجات:

الدرجة الأولى: الانتباه إلى الألفاظ.

الدرجة الثانية: التوجه إلى المعاني.

(١) الوسائل ٣: ٥١و٥٢.

والـدرجـة الأعـلى: هي الانصراف عن التفكير في كلّ شيء، وحصـره مع كل الإدراكات في الصلاة والتي يتوصل إليها الكُمَّل من العبيد. فكلما كان التوجه والتركيز أكثر كانت العبادة أجود، وكذلك كلما كانت معرفة الإنسان لله أكثر فإنَّ قيمة عبادته ستكون أكثر.

فعلينـا أن نطلب من الله إعـطاءنا القدرة على أن نسيطر على قلوبنا ونتمكن من أول الصلاة إلى آخرها أن نركِّز تفكيرنا، وما ينبغي أن نراعيه في البدء هو أن نقيم الصلاة في أول الوقت وأن ننصرف قبل الصـلاة إلى التفكـر والتأمل، وأن نتصور ونتأمل معنى كل جملة قبل تلفظها أثناء الصلاة.

وأمَّا الجملة الثانية (إيَّاك نستعين) فيجب أن نعتقد بأنَّ الله وحده الذي يستغني عن العالم، وأنَّ كل الوجود يحتاج إليه، وأنَّ كل شيء وكل أحد يعود إليه وإلى ملكه، وأن كلّما يملكه الناس هو من عطاء الله وهو قادر على أخذه متى يشاء، فإنَّ الله لا يتوانى عن العطاء والبذل، وهو الذي يدعو عباده إلى أن يتَّجهوا صوبه ويأخذوا ما يشاءون، فهل ينبغي للإنسان أن يطلب ما يريد من غير الله؟ فلو تحلى شخص بالإيمان القوي والصحيح فإنَّه لن يتوجه إلى غير الله في شيء.

من الطبيعي أنَّ الله أقرن نظام السببية وجعل لكل أمر سبباً، ولكن المؤمن الحقيقي يجب أن يعتقد بتأثير الله فقط ولا يعتمد على غيره. فشفاء المريض ـ عادة ـ يتم عن طريق الطبيب والدواء، ولكنها وسيلة وإن الشافي هو الله.

ومن أجل تقريب هذا المطلب إلى الأذهان لنفرض أنّ أحداً يريد أن يأخذ مبلغاً من أحد الأثرياء، ولهذا الأخير جهاز إداري واسع متكون من المعاون ومسؤول المكتب والسكرتير الخاص والمحاسب وأمين الصندوق و... ولكن هؤلاء لا يعطون أحداً أي مبلغ إلاّ بتوقيع ذلك الثري، فعلى الشخص مراجعة المكتب والمعاون والصندوق ولكن هؤلاء وسائل والمؤثر الحقيقي نفس الثري.

فالمؤمن يعتبر أن المؤثر الحقيقي في جميع الأمور هو الله، هو الشافي وهو الرازق، ولكنه ينفذ ما يريد بأي طريقة يراها صالحة، فتارة بالطرق الطبيعية وتارة بدونها.

فمن الممكن أن يرزق أحداً عن طريق الوسائل الطبيعية، وأحياناً ينزل مائدة من السماء كما أنزلها على عيسى(ع) والحواريين، وقد ذكرت قصة المائدة في سورة المائدة ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيْدَاً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا...﴾[٢].

وعلى أي حال، فسواء كانت العملية عن طريق الأسباب الطبيعية أوغيرها، فإنّ المؤثر الحقيقي هو الله، فالمؤمن يطلب العون من الله وحده، وعندما يريد حاجة فيفكر بالدرجة الأولى بالله، ويطلب منه قضاء حاجته، وبعد ذلك من أجل إطاعة أمره يتّجه إلى مسببات الأمور، وطبقاً للنظام الذي أقرّه الله لمصلحة ما، ولو قُدّر أن لم يحقق الوصول إلى

(٢) المائدة: ١١٤.

هذه المسببات أمله فإنّه لا يفقد أمله، وهو على يقين أنّه لو يشاء الله لحقق له ما يريد حتى بدون توفر المسببات، ولو أنّ الأسباب توفرت فإنّه لا يعتمد عليها بل يظل معتمداً على الله، ولا يعتقد في استقلالية تأثير الأسباب.

اللهم ارزقنا العرفان الكامل وتوفيق العمل أجمعين بعنايتك (آمين).

المحاضرة الرابعة والعشرون

يجب أن يعلم المؤمن أنّ المؤثر الوحيد في العالم هو الله، ويجب أن نستمد العون منه فقط في حياتنا، والأصل هو أن الإنسان لا يملك شيئاً من ذاته، بل الجميع قد وجد بأمره وبواسطته. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

كذلك يجب معرفة الطريق الصحيح في الحياة عن طريق طلبه من الله ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ نفهم من هذه الجملة إنّ للإنسان هدفاً، لذلك فهو يطلب من الله هدايته إلى الطريق المستقيم الذي يؤدي به إلى الهدف، فقد عرّف الله الهدف الأساسي للإنسان عن طريق الأنبياء، وبيّن الطريق إلى ذلك الهدف.

فقد وصلنا في البحوث السابقة إلى أنّ الهدف الأساسي للإنسان هو الوصول إلى الكمال الحقيقي والسعادة الأبدية، وأنّ هذه السعادة لا تتحقق إلّا في ظل العبودية والتقرب إلى الله، وعلى ذلك فإنّ أي محاولة يقوم بها الإنسان في سبيل الوصول إلى غير هذا الهدف تعتبر من الوهم

وبلا نتيجة، وتوجب الحسرة والندامة الخالدة، فيجب أن تكون محاولات الإنسان متجهة نحو الوصول إلى السعادة الأبدية.

فالمؤمن لا يعتقد بأصالة الحياة الفردية ولا الاجتماعية، فالذي يعتبر أصيلًا في رأيه هو القرب الإلهي. فالذي يعتبر الهدف في الحياة هو إشباع الغرائز الحيوانية، فإنّه في الواقع لم يعرف الكمال الحقيقي والهدف الأساسي للإنسان.

فالإنسان لم يخلق من أجل الأكل والنوم فقط، بل إنّ الأكل والنوم من أجل الاستمرار بالحياة، والزواج من أجل حفظ النسل البشري، ولكن ما هو الهدف من استمرار الحياة النوعية والجنسية؟

فالإنسان يجب أن يتمتع بجميع اللذائذ المادية، ولكن هذه اللذائذ لا تليق أن تكون هدفاً للإنسان. خاصة بالنظر إلى المتاعب والمصاعب التي يتحملها من أجل تحصيلها، كذلك إرضاء العواطف العائلية والاجتماعية لا تستطيع أن تُعين الإنسان على الوصول إلى هدفه، ولايصح أبداً إسداء أمر شؤون الحياة إلى العواطف. لأنّه يؤدي أحياناً إلى مخالفة الحق والموازين العادلة، ويمنع الإنسان مرة أُخرى من الوصول إلى التكامل الأعلى.

يقول القرآن في حق المرأة والرجل الذين يرتبطان معاً بصورة غير شرعية ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ اللهِ﴾[1] فيأمر بمعاقبتهم

(١) النور: ٢.

أمام الملأ، وأن لا تكون العواطف مانعة عن إجراء الحكم الإلهي.

فلا تكون الأعمال العاطفية صحيحة إلاّ عندما تتوافق مع موازين العقل والشرع.

وبصورة عامة فإنّ الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة وسيلة وأداة لا أكثر، ولو لم يكن لنا اعتقاد وإيمان بالحياة الآخرة ومبدأها، فإنّ حياتنا ستفقد قيمتها الحقيقية ولن تكون أكثر من اللعب واللهو ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيْوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

فإنّ الحياة الدنيا كحكاية الذي يركب سيارته فيسألونه: إلى أين أنت ذاهب؟ فيقول: أذهب لأملأها وقوداً. ثم يتجه نحو محطة البنزين الثانية ويقول: أذهب إلى المحطة الأُخرى، فيقولون له: ولكن لديك وقود الآن، فيجيب: أُريد أن أصرف هذا البنزين للوصول إلى المحطة الثانية، فالحياة الدنيا كذلك، فإننا نأكل لنعمل ونحصل على المال ونشتري الغذاء، ونأكل لنعمل.. وهكذا إلى نهاية الأمر، ولكن ما هو الهدف؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[٣].

فالهدف إذن هو الرجوع إلى الله في العالم الخالد. ولكن سعادة تلك الدنيا يعطونها لمن اختار الطريق الصحيح وسلكه إلى الله، فنعماء هذه الدنيا لا تختص المؤمنين والموحدين ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ

(٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[٤] فعطاء الله يشمل الجميع، المؤمنين والكافرين، ولكن نعمة الآخرة تختص بالمؤمنين ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[٥].

وإنَّ الوصول إلى ذلك يعتمد على الإيمان والعمل الصالح، والمنهاج الكلي لذلك هو العبودية لله ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيْمٌ﴾[٦].

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَىٰ اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ﴾[٧].

﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾[٨].

فمن لم تكن الدنيا ولذائذها هدفاً لحياته، فإنَّه لا يتعلّق بها قلبياً، وعندما لا تتفق لذة الدنيا مع الآخرة فإنَّه يصرف النظر عنها لكي يحصل على تلك اللذة اللامحدودة.

ولكن الذي يهدف إلى التمتع بهذه الدنيا فإنَّه لا يتمكن من ترك الشهوات اللامشروعة في هذه الدنيا من أجل الحصول على النعّم الخالدة ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ إِنَّ هَذَا لَفِي

(٤) الإسراء: ٢٠.

(٥) الأعراف: ٣٢.

(٦) يس: ٦٠.

(٧) لقمان: ٢٢.

(٨) آل عمران: ١٩.

الصُحُفِ الأُولىٰ صُحُفِ إبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَىٰ﴾[٩].

فإنَّ جميع الأنبياء كانوا يدعون الناس إلى هذه الحقيقة وإنَّ من أهم أسباب عدم طاعة الناس لهم، هو أنَّ الناس لم يرغبوا في الاعتراف بالآخرة ويتركوا لذائذهم الدنيوية السريعة الزوال من أجل الوصول إلى الراحة الخالدة ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إلاّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوْتُ وَنَحْيَىٰ وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ﴾[١٠].

فكان الكافرون يستهزئون بمبدأ المعاد والحياة بعد الموت ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيْدٍ﴾[١١].

ذكر القرآن الكريم مكرراً موضوع استبعاد الكافرين لإحياء الموتى من جديد، ويقول في جوابهم: هل إنَّ الذي أوجدكم من العدم عاجز عن أن يعيدكم أحياء من بعد الموت؟

وقد أشار القرآن إلى الجانب النفسي من هذا الاستبعاد ﴿أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلا قَادِرِيْنَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيْدُ الإنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[١٢] فالإنسان يريد أن يهرب من المسؤولية، ولهذا فإنَّه لا يريد أن يعترف بأنَّ هناك عالماً آخر يجري فيه الحساب والعقاب.

(٩) الأعلى: ١٦ـ١٩.

(١٠) الجاثية: ٢٤.

(١١) سبأ: ٧.

(١٢) القيامة: ٣ـ٥.

المحاضرة الخامسة والعشرون

تفسير سورة الحمد.

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّيْنَ﴾.

ما هو المقصود من الذين أنعم الله عليهم؟ هل المقصود الذين يملكون الإمكانيات المادية في الدنيا من المال والثروة والجاه والسلطة والمكانة الإجتماعية، والذين يستطيعون التمتع والتنعم بهذه الإمكانيات والسلطة؟

فلو لم يكن لنا دليل على المقصود من هذه النعمة فإنَّ تعبير ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذي ذكر بعد تلك الآية يكفي لأَنْ نعلم أنَّ تلك النعمة نعمة خاصة لأنَّ المفهوم من هذه الآية هو أنَّ الناس على ثلاثة أقسام:-

١- محل النعمة.

٢- محل الغضب.

٣ـ الضالون.

فلا شك في أنّ الظالمين والدنيويين ليسوا من المجموعة الأولى، فالمجموعة الأولى ـ إذن ـ هم الذين شملتهم العناية واللطف الإلهي. ولا يخفى أنّ هناك من يعتقد أنّ من حصل على نعمة دنيوية فإنّ الله قد شمله بلطفه وعنايته ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنْ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيْ أَهَانَنْ﴾[١].

ولكن منطق القرآن يقول: إنّ جميع الأموال ومتعلقاتها وشؤون الحياة هي إداة اختبار وامتحان. وإنّ السعة في الرزق والتقدير فيه، والفقر والغنى.. كلها وسائل ابتلاء للأغنياء، هل ينفقون على الفقراء؟ وابتلاء للفقراء، هل يقنعون بحقهم المشروع أو أنهم يمدون أيديهم إلى أموال الأغنياء بصورة غير مشروعة؟

ينقل القرآن في سورة الزخرف قول المنافقين إذ قالوا: لِمَ لَمْ يُنزَّل القرآن على رجل ذي مكانة من أهل المدينة أو مكة؟ ويجيب على ذلك ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضَاً سُخْرِيَّاً﴾[٢].

ويقول بعد ذلك ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً..﴾[٣].

فلولا هذه السنة الإلهية لأعطينا الكفار ثروة ليصنعوا سقف

(١) الفجر: ١٥ـ١٦.

(٢) الزخرف: ٣٢.

(٣) الزخرف: ٣٣.

بيوتهم من الفضة، ويجعلوا لأنفسهم أثاثاً وزينة ومظاهر الجمال و البهاء.

فإذن لا قيمة لهذه الماديات عندنا ﴿وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِيْنَ﴾[٤] فالذي نعطيه أهمية هي الآخرة، وهي تختص بالمتقين.

ومن جانب آخر فلا يعتبر المتمتع بالنعم الدنيوية بعيداً عن الله، حيث أعطى الله سليمان سلطاناً ومقاماً سخَّر من خلاله الجن والإنس واستعملهم، وقرن المتمردين من الجن بالسلاسل ﴿وآخَرِيْنَ مُقَرَّنِيْنَ بِالأَصْفَادِ﴾[٥].

وهذا لا يدل على أن الله لم يعتن بسليمان، فالمقصود من ﴿الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ نفس الذين قد ذكروا في الآية الأخرى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُوْلَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيْقاً﴾[٦].

فأصحاب النعمة الحقيقيون هم هؤلاء الأربع مجموعات، فالمؤمن يدعو ربَّه عند المناجاة ويقول: اللهم اهدنا سبيل من أنعمت عليهم، فلو حرم عباد الله المخلصون من بعض نعم الله في هذه الدنيا وكان ذلك في سبيله، فإنَّهم سيعوضون عنه في الآخرة بنسبة لا نستطيع قياسها نحن.

والواقع أنَّ الشيء الذي يوجد لذة مؤقتة ومحدودة ويتبعها الضياع

(٤) الزخرف: ٣٥.

(٥) ص: ٣٨.

(٦) النساء: ٦٩.

الكبـير والحسرة والندم لا يمكن إطلاق إسم النعمة عليه، لنفرض أنَّ أحداً يقوم بعمل قبيح يحصل منه لذة محدودة، فيستعمل الهيروئين مثلاً، فإنَّه يرتاح للحظة وينتعش، ولكنه سوف يتبع ذلك البؤس لمدة سنين، فهل يعتـبر ذلـك العمل نعمة؟ فالذين يتلذذون في الدنيا، ويبتلون بعذاب الآخرة فالواقع أنَّهم ليسوا من أهل النعم.

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلَادُهُم إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُوْنَ﴾[٧].

مثال آخر: لو أنَّ أحداً شرب شراباً حلواً وُضِع فيه السم، فما دام ذلك الشراب في فمه فإنَّه يلتذ بحلاوته، ولكنه سيموت بعد ذلك، فهل يمكن القول بأنَّه تمتع بنعمة من النعم؟

فعندما تذكر الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ فَإِنَّ ذلك عن طريق نفاقهم وضياعهم، وإلَّا فإنَّ الله لا يريد ظلم العباد. تصوروا أنَّ واحداً واقف على قمة طريق منحدر ويقول له الناس: لا تسرع فإنَّك ستسقط وتهلك، ولكنه يلج ويبدأ بالركض السريع ويفقد توازنه ثم يسقط ويفقد حياته. فهل يقع هلاك هذا الشخص على عاتق غيره؟

كذلك فإنَّ الله قد أنذر الناس عن طريق الأنبياء بأن يأخذوا الحيطة في تصرفاتهم، وأن يراعوا التقوى، ولا يسمحوا للأهواء والغرائز الحيوانية أن تسلب زمام الأمور من أيديهم. فلو خالف أحدٌ أوامر الله

(٧) التوبة: ٥٥.

بسوء اختياره وأراد الله أن يعذبه، فهل ظلمه الله في العذاب؟

فقد بيّن الله تعالى سنته في هذه الآيات ﴿مَنْ كَانَ يُرِيْدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيْهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيْدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيْهَا مَذْمُوْماً مَدْحُوْراً وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوْراً كَلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلَاءِ وَهٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوْراً﴾[٨].

فمن أحسن فسينال السعادة، ومن أساء فسينال العذاب، فقد وضع الله هذا القانون لكي يختار الإنسان أي طريق يريده، وكل من اختار طريقاً أدّى به إلى نهايته المحتومة.

﴿غَيْرِ المَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّيْنَ﴾.

فمن أنعم الله عليه بالنعم الوافرة وهداه طريقه وأتم الحجة عليه، ولكنه في نفس الوقت عصى الله بكل صلافة، فإنّه سيجعل محلّاً لغضب الله.

المثال الواضح على مثل هذه النوعية من الناس هم بنو اسرائيل الذين أنعم الله عليهم بمختلف النعم التي لا تحصى، وأنجاهم من مخالب الفراعنة، وأغرق الفراعنة أمام أعينهم، ولكن لم يمض عليهم وقت طويل إذ رأوا أناساً يعبدون الأوثان فطلبوامن نبيهم ـ بدافع الهوى ـ أن يجعل لهم معبوداً ملموساً ومحسوساً﴿إِجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[٩]

(٨) الإسراء: ١٨ـ٢٠.

(٩) الأعراف: ١٣٨.

فعاتبهم موسى ووبّخهم على ذلك الجهل وحذّرهم منه. ولكن عندما هاجر موسى إلى جبل طور أربعين يوماً فإنّهم اتّخذوا إلهاً لهم من عجل، وقاموا بعبادته وقالوا: هذا هو إله موسى.

الموضوع الآخر الذي أوجب لهم سخط الله، هو أنّهم أُمروا أن يمتنعوا عن صيد السمك في يوم السبت ويصطادونه بقية أيام الأسبوع، ولكن ومن أجل اختبارهم من حيث حدود إطاعتهم لأوامر الله، فقد كانت الأسماك تقترب عن الساحل أيام السبت وتبتعد عنه بقية الأيام، فقام بنو إسرائيل بايجاد أنهار وأحواض في ساحل البحر، وكانوا يفتحون الماء على هذه الأنهار والأحواض خلال أيام السبت ويصطادون السمك في اليوم التالي، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِيْنَ﴾[10].

فمن يقول في صلاته ﴿إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾ فهو طريق الأنبياء والصدِّيقين، وليس طريق الذين ﴿غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ عليه أن يمتنع عن هذه الحيل والمعاصي التي توجب غضب الله، وأن يكون مريداً واقعياً للأنبياء والأولياء وإلاّ فإنّ الطلب باللفظ لا يكون كافياً.

(١٠) البقرة: ٦٥.

المحاضرة السادسة والعشرون

﴿أُدْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِيْ سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ﴾[1].

أحد أجزاء الصلاة هو الدعاء، وقد قيل: إنَّ أصل الصلاة تعني الـدعاء، ولكن من الممكن أن المعنى الواقعي لها هو التوجه، والدعاء كذلك توجه إلى الله، ولكنه توجه خاص لرفع الحاجة.

قسم من دعاء الصلاة يأتي في سورة الحمد ﴿إِهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾.

ولكن يجب أن نقـرأ هذه الآية بصفـة قراءة القرآن ولا نقرأها بعنوان الدعاء المستقل، فالقنوت الذي هو مستحب مؤكد جعل من أجل الدعاء، ويمكن الدعاء في بقية أجزاء الصلاة، لقد عرف الدعاء بعنوان مصداق العبادة ويتّضح هذا الموضوع بالرجوع إلى صدر وآخر الآية التي ذكـرت في أول الموضوع، حيث يقول بعد الأمر بالدعاء ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ

(١) غافر: ٦٠.

يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّم دَاخِرِيْنَ﴾.

يفهم من ارتباط هاتين الجملتين أنَّ الدعاء هو عبادة[٢] ومن يستكبر عن الدعاء ويعتبر نفسه في غنى عن الله فإنَّه يرتكب ذنباً كبيراً.

فالعبادة عمل يقوم به الإنسان بعنوان العبودية، وإنَّ حقيقة الدعاء هي كذلك إذ يقول الداعي: إنني عبد، وأنت رب مالك لكل شيء، وبيدك كل شيء، وتفعل ما تريد.

وحقيقة الدعاء هي طلب الشيء من المالك المطلق.

فلو احتاج أحدٌ إلى غيره، فيجب أن لا يعتبره المالك المطلق لذلك الشيء، أو أنَّه يمكنه أن يفعل شيئاً من دون الحاجة إلى الله، ولكن يجب أن يعتبره واسطة عن الله، ولو أنَّ أحداً طلب شيئاً من الإنسان أو غير الإنسان بنفس الصيغة التي يطلب بها من الله، فإنَّ ذلك من الشرك في العبادة، كما كان المشركون يطلبون من الأصنام. ولكن لو كان الطلب ليس بعنوان المالك المستقل فإنَّه لا يكون شركاً.

وبالتالي فإنَّ بعض الأسئلة والطلبات تكون حراماً في بعض الأحيان، كما أنَّ الكسول الذي يمتنع عن السعي والعمل ويوفر ما يحتاج عن طريق الاستجداء، فإنَّه قد أذنب.

وهناك بعض الأسئلة التي لا تعتبر حراماً،ولكنهامرجوحة،كما أنَّ أحداً يستطيع عمل شيء ولكنه يوكله إلى غيره. يقول أحد الصحابة: إنَّه

(٢) وهناك أحاديث أُخرى تدل كذلك على أنَّ الدعاء عبادة، وقد فسروا الآية الشريفة بذلك المعنى ـ *أُصول الكافي* ٣: ٤٦٦، ٤٦٧. في *عدة الداعي*: ٣٣، ٣٥، ذكر عدة *أحاديث في هذا المعنى*.

كان في زمان النبي(ص) إذا سقط سوط راكب الفرس على الأرض فإنَّه يترجَّل ويأخذ سوطه بيده، ولا يقول لصاحبه الذي يقف بجانبه: ناولني السوط، لأجل أن لا يطلب من أحدٍ شيئاً، وأن يحمل حاجته بنفسه.(٣)

وكما أنَّ بعض الطلبات مرجَّحة مثل الطلب من الإمام والنبي أنْ يدعو له بغفران الذنوب وقضاء الحاجة عند الله.

يعتقد الوهابيون أن توسل أهل التشيع وبقية أهل السنة شرك، لأنَّه طلب من غير الله، وذلك كلام باطل، لأننا عندما نطلب شيئاً من النبي(ص) أو الإمام(ع) فإننا لا نعتبرهم المالكين له بصورة مستقلة، بل نعتقد أنَّهم وسائل إفاضة الرحمة الإلهية على الآخرين. ولو امتنع أحدٌ بعد الانتباه إلى مشروعية الدعاء عنه، واعتبر نفسه غنياً عن النبي والإمام فإنَّه قد ارتكب نوعاً من التكبر والشرك.

تفيد كثير من الآيات أنَّ الذهاب إلى باب الرسول(ص) وطلب الحاجة منه شيء مطلوب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُوْلُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيْماً﴾(٤).

(٣) قال محمد بن مسلم: قال أبو-جعفر عليه السلام: يامحمد، لو يعلم السائل ما في المسألة ما سأل أحدٌ أحداً، ولويعلم المعطي ما في العطية ماردّ أحدٌ أحداً. ثم قال: يامحمد، إنَّه من سأل وهو بظهر غنى لقي الله عزوجل مخموشاً وجهه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ قوماً أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله...فبلغ ذلك قوماً من الأنصار، قال: فأتوه فقالوا: يارسول الله(ص) اضمن لنا على ربك الجنة. قال: على أنْ لا تسألوا أحداً شيئاً قالوا: نعم يارسول الله(ص) فضمن لهم الجنة، وكان الرجل منهم يسقط سوطه وهو على دابته فينزل حتى...مجموعة ورام:٢٩٤-٢٩٥.

(٤) النساء: ٦٢.

وكـذلـك فقـد ورد في قصة أولاد يعقوب[٥] أنهم بعد أن ابتلوا بالفضيحـة جاءوا أبـاهم وطلبـوا منه أن يستغفر لهم الله، فلم يقل لهم يعقوب: استغفروا أنتم بأنفسكم، وإنَّ طلب الاستغفار مني عمل غير صحيح، ولكنه قال: إنِّي سأستغفر لكم، وقد فعل.

وكذلك إبراهيم(ع) فعندما هدده آزر قال له إبراهيم: سأستغفر لك ربي، وقد وفى بوعده، ولكن بما أنَّ آزر كان عدواً لله وكان معانداً للحق، فإنَّ استغفار إبراهيم لم يقبل بحقه، فلقد كان إبراهيم يأمل من آزر أن يترك عناده، ولكنه عندما تيقَّن أنَّه لن يتخلى عن عدائه تبرّأ منه، يقول القرآن في سورة الممتحنة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيْ إِبْرَاهِيْمَ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ إِذْ قَالُوْا إِنَّا بُرَءَآؤاْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَدَاً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلُ إِبْـرَاهِيْمَ لأَبِيْهِ لأَسْتَغْفِـرَنَّ لَكَ﴾[٦] بمعنى لا يجب الاستغفـار للكـافـرين، وقـد بين تعليل هذا الاستغفار في آية أُخرى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيْمَ لِأَبِيْهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٧].

فلا ينبغي للمؤمن أن يكون له علاقة قلبية مع المشركين، بل يجب أن

(٥) يقول القرآن الكريم في وصف المنافقين ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفرلكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾. *المنافقون: ٥*.

(٦) الممتحنة: ٤.

(٧) التوبة: ١١٤.

يظهر عداءه، لأنّهم يختلفون في الهدف ولا يمكننا التغاضي عن الهدف، فهدف المؤمن هو الله ويجب عليه التعاون ومسايرة المؤمنين، فمن دعا لكافر فقد دعا على نفسه في واقع الأمر وقام بالعداء مع الله. فلا يكون التعامل والتعاون صحيحاً إلّا عندما يكون الهدف مشتركاً، فهدف المؤمن هو إعلاء كلمة التوحيد ولا يمكنه التعاون مع عدو التوحيد.

فالخلاصة، إنّ طلب الاستغفارِ من أولياء الله الصالحين شيء مطلوب ويؤيده القرآن، ويجب على المذنبين أن يطلبوا من النبي(ص) أن يستغفر لهم، كذلك فإنّ الذي يطلب من النبي(ص) أن يدعو له بالشفاء وقضاء الحاجة الدنيوية فإنّ ذلك ليس من الشرك، إلّا إذا اعتبر الإمام والنبي(ص) لهم استقلالية في التأثير وشركاء لله، حقاً هل أنّ الذين كانوا يقصدون النبي عيسى(ع) ليشفي مرضاهم ويحيي موتاهم هل كانوا مشركين؟ وهل أنّ عمل عيسى(ع) كان مساعدة للشرك؟ نعوذ بالله من الجهل.

والحقيقة أنّ من يستكبر عن أصل الدعاء، ويلوي رأسه ويعتمد على قدرته وقدرات باقي المخلوقات، فإنّه يستحق العذاب المهين. فعلى المؤمن أن يوجه أفكاره إلى الله، أن لا يطلب العون إلّا منه، وأن لا يعتمد على نفسه، فقد شجع علم النفس على الاعتماد على النفس في قبال الذين يعتمدون على الغير، فالاعتماد على النفس من الناحية السلبية-يعني عدم الاعتماد على الآخرين-شيء مطلوب، ولكن روح التوحيد لا تتلاءم مع الجانب الإيجابي منه، لأنّ الإنسان لا يستطيع الاعتماد على نفسه،

الإنسان الذي لا يمتلك اختيار تنفسه كيف يتمكن من الإعتماد على نفسه؟! فروح التوحيد والاعتماد على الله هو أنه كلما احتاج شيئاً فإنّه يتوجَّه إلى الله، وأن يعتمد عليه فقط، ويطلب العون منه، وأن لا يعتمد على أي شيء آخر.

المحاضرة السابعة والعشرون

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّيْ قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيْبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِيْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُوْنَ﴾[1].

قلنـا في المحاضرة السابقة أنَّ الدعاء في ذاته نوع من العبادة الإلهية. وحـول هذا الموضوع فهمنا من الآية الشريفة أنَّه بعد الأمر بالدعاء ﴿أُدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] فإنَّه يقول ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ﴾[3] وقد ورد في الرواية «الدُّعَاءُ مُخ

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣)....قال أبو عبد الله عليه السلام: الدعاء هو العبادة التي قال الله: ﴿إنَّ الذين يستكبرون...دٰاخرين﴾ *اصول الكافي ٢: ٤٦٧*. عدة الداعي: ٣٣. وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام...قال: قال: (هو الدعاء وأفضل العبادة، الدعاء...). *اصول الكافي ٢: ٤٦٦*.

العِبَـادَةِ»[٤] فإنَّ عدم الدعاء ليس دليلاً على الاستكبار والتعالي دائماً، ولكن أحياناً تكون بعض شبهات الشيطان مانعاً أمام هذه العبادة العظيمة.

فيقال على سبيل المثال: إنَّ الله تعالى قد جعل الأمور بأسبابها الخاصة، ويجب على الإنسان أن يسعى جاهداً للحصول على الأسباب والوسائل التي توصله إلى هدفه، وإلاّ فإنَّ الدعاء لا يمكن أن يحل مكان العمل والسعي الجاد، ولا يملأ فراغ الوسائل والأسباب، كما يقول القرآن ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيْلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيْلاً﴾[٥].

وقد جاء في الرواية *«أبىٰ الله إلّا أن يجري الأشياء إلّا بأسباب...»*[٦].

وإنَّ الدعاء في الأساس وسيلة تخديرية في أيدي الدول المستعمرة، ليحولوا دون قيام الناس بالجد والسعي والمثابرة، وأن ينصرف الناس إلى الدعاء بدلاً عن الجهاد والمجابهة، كي ينحصروا في زوايا المساجد والمعابد بدلاً عن اشتراكهم الفعال في ميادين الحياة والجهاد، وبذلك فإنّهم

(٤) عن النبي صلى الله عليه وآله: ((افزعو الى الله في حوائجكم، والجأوا إليه في ملماتكم، وتفرعوا إليه وادعوه، فإنَّ الدعاء مخ العبادة، وما من مؤمن يدعو الله إلّا استجاب له، فإما أن يعجل له في الدنيا، أو يؤجل له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا وما لم يدع بمأثم)). *عدة الداعي*: ٣٤. *الوسائل* ٢: ١٠٨٦.

(٥) فاطر: ٤٣.

(٦) أصول الكافي ١: ١٨٣.

يتركون المجال أمام انتصار المستعمرين مفتوحاً.

فالحقيقة هي أنَّ في كل زمان هناك مجموعة من الناس الكسالى والتبريريين، ومن أجل التهرب من ثقل المسؤولية فإنَّهم يتشبثون بالتعليلات، ويحاولون استخدام كل السبل لتبرير تماهلهم وركونهم للراحة والكسل، وعلى سبيل المثال فإنَّهم استخدموا الدعاء غطاءاً لروح الكسل وطلب الراحة لديهم، ويموهون الحقيقة بأنَّ الدعاء هو بديل عن النشاط والعمل، ولكن ـ بنفس المقدار الذي يبتعد به هؤلاء عن الحقيقة ـ فإنَّ الذين يلغون دور الدعاء ويعتبرونه أداة لسكون الروح والتلقين النفسي ـ كذلك ـ على خطأ كبير، وإنَّ ما يتشبثون به من الآيات والروايات لهو ﴿أَوْهَنُ مِنْ بُيُوْتِ العَنْكَبُوْتِ﴾.

إنَّ من كانت له معرفة بالقرآن الكريم فإنَّه يعلم أنَّ هذا الكتاب السماوي لا يعتبر الدعاء بديلًا عن أداء الواجب، مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والدفاع، وإلّا فإنَّ المنافقين الذين وبخوا من قبل القرآن بسبب تركهم للجهاد كان بإمكانهم القول: إنَّنا كنا مشغولون بالدعاء بدلاً عن الجهاد.

من جانب آخر فإنَّ القرآن لا يحصر الدعاء في كونه ملقناً نفسياً، أو أنَّه يختص بهدوء الروح، ولكنه يذكر أمثلة كانت الأسباب الطبيعية ـ حينذاك ـ مغلقة، وقد فتحت بصورة غير طبيعية بتأثير الدعاء، وإنَّ ما توضحه الآيات المرتبطة بالدعاء هو: اطلبوا من الله لكي يرفع لكم الله ما دعوتموه فيه، وإنَّ أي شخص يخلو من الغرض فإنَّه يفهم من الدعاء

أنّه شرط للإجابة، وأن الله يستجيب لعبده بواسطة الدعاء كما استجاب لإبراهيم دعاءه، ووهبه ولداً من امرأة عجوز عقيم، وعندما كان هو في سن الكهولة، ولما سمعت زوجته بشارة الإنجاب فإنّها من شدة التعجب لطمت وجهها وقالت: هل يمكن أن يكون لامرأة عجوز عقيم أن تلد من رجل كهل كإبراهيم؟ فقال لها الملائكة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[7].

وكذلك يذكر القرآن قصة زكريا عندما ابيضّ رأسه وضعف بدنه من الكبر، إذ قال ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾[8] فطلب من ربه أن يرزقه ولداً زكياً لكي يرث قوم يعقوب، فاستجاب له ربه، ومع أنّ الظروف الطبيعية آنذاك لم تكن مساعدة على الإنجاب، فلقد رزقه الله ولداً طاهراً ومحبوباً اسمه (يحيى).

وكذلك فإنّ المسلمين في معركة بدر وجدوا أنفسهم ضعفاء من كل جهة، من حيث العدة والعدد، وكذلك من حيث عدم مساعدة ظروف جبهة القتال، فالتجأوا إلى الدعاء ﴿وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ إِنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَـلائِكَةِ﴾[9] فانطلق الملائكة إلى مساعدة المسلمين، ونصرهم الله على الكافرين ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[10].

(٧) هود: ٧٣.

(٨) مريم: ٤.

(٩) الأنفال: ٩.

(١٠) آل عمران: ١٢٣.

وعلى هذا الأساس فإنّ مسألة استجابة الدعاء هي من السنن الإلهية التي لا تتغير، فإنّ بإمكان الإنسان أن يلجأ للدعاء حتى لو لم يتوفر أيٌ من العوامل الطبيعية والسنن العادية، ويستجيب الله دعاءه ويلبي حاجته بعيداً عن الأسباب الطبيعية.

وكما أن انطفاء النار بواسطة الماء لا يتنافى مع سببية النار في الإحراق، ولا يستوجب تبديل وتحويل سنّة من السنن الإلهية، فإنّ حدوث ظاهرة بواسطة الدعاء ـ خلافاً للأسباب الطبيعية ـ لا يكون دليلًا على تغيير سنّة إلهية، وإنّما هي سنة حاكمة على السنن الأخرى، وكذلك الدعاء فإنّه سبب لإيجاد أداة تحقيق مطلوب من المطلوبات، ولذلك فهو لا يتنافى مع جريان الأمور بأسبابها، ولكن تارة يكون سبباً طبيعياً وتارة غير طبيعي، ولم ينف الله والنبي والإمام(ع) أبداً وجود الأسباب غير الطبيعية ومن ضمنها الدعاء.

نعم، فإنّ إلغاء الأسباب الطبيعية وغض النظر عنها بسبب التساهل وحب الدعة موضوع، وطلب الحاجة من الله سواء في توفر الظروف الطبيعية أوعدم توفرها موضوع آخر. وإنّ مرضى القلوب يخلطون دائماً بين هذه المواضيع ويجرون الجهلة من الناس إلى الضلال والضياع.

وأما قول الذين يدّعون أنّ الدعاء هو آلة تخدير يروجها المستعمرون لِيصرفوا الناس عن العمل والنشاط والمجابهة مع الظالمين. فيجب القول: إنّ المستعمرين والمستثمرين يستخدمون كل شيء

في سبيل منافعهم، وإنَّ المفاهيم الدينية هي إحدى الوسائل التي يستخدمونها لغرض التحريف والتزييف لأجل منافعهم المشئوومة.

ولكن يجب الانتباه إلى أنَّ ما من شيء يلحق الضرر بالمسلمين ويجلب الفائدة لأعدائهم أعظم من ضعف ارتباطهم بخالقهم، واضمحلال روح العبودية والتسليم أمام أوامر الله لديهم، ويكاد إيمانهم يقترب نحو الضعف والزوال، وفي مثل هذه الحال فإنَّهم لا يستطيعون الإستفادة من القرآن لأنَّهم فقدوا شرط الهداية الذي هو الإيمان بالغيب والتقوى، ولم يحافظوا على سندهم المعنوي وما وراء الطبيعة، لأنَّ الله ينصر من ينصره، وليس له أيَّة قرابة مع أحد، ولا ترتبط رحمته باسم الإسلام ولكنها مناطة بحقيقته.

وعلاوة على ذلك فإنَّهم قد حرموا من التعاليم الحقيقية للإسلام التي تمنح المسلمين قدرة لا تقهر.

فالذين يعتقدون أنَّ باستطاعتهم الإتصال بالله ويطلبون رفع احتياجاتهم رغم عدم توفر السبل الطبيعية لذلك، فإنَّهم لن ييأسوا أبداً ويبعث هذا الأمل على زيادة نشاطهم وسعيهم، وعندما يرى الله صدقهم وإخلاصهم فإنَّه يمنحهم المساندة الظاهرية والمعنوية ويحقق نصرهم كما نصر أصحاب بدر.

فهل يعتبر هذا الإيمان وهذه العقيدة من مصلحة المستعمر أو ضرره؟ وهل الطريق الوحيد لإبطال مفعول حربة المستعمر هو أن نقوم بدورنا في تحريف المفاهيم الدينية بشكل آخر لكي تمسخ عن آخرها وتفقد

أثرها الواقعي، ونقول على سبيل المثال: إنَّ الدعاء لا يتعدى أن يكون له أثرٌ تلقيني؟ يا للجهل!

قد يرد في أذهان البعض تساؤل هو: ما دام للدعاء هذا النتاج والتأثير، فلماذا لا يستخدم دائماً حتى عند توفر الظروف الطبيعية لبعض الأعمال؟

والجواب هو: انَّ الحكمة الإلهية تقضي أن يسعى الناس لتحقيق الأهداف عن طريق الأسباب الطبيعية لكي يصادف الإنسان ويطلع على آلاف وسائل الاختيار والتكامل الاختياري، وهذا ما لا يتوفر في اللجوء إلى زوايا المساجد والمعابد.

وكما قلنا مراراً فإنَّ الغرض من خلقة الإنسان في هذا العالم المادي هو أن يختار بنفسه طريق تكامله، وكمال الإنسان في الأصل يكمن في الإختيار، ويحتاج إلى ميدان حر للعمل، وطرق متعددة وأساليب مختلفة للاختبار، وكلما كانت أرضية الاختبار أوسع كان احتمال تكامل الإنسان أكبر، لذلك فقد أمر الله الإنسان بالعمل والسعي والنشاط لكي يتم اختباره ويخرج من الامتحان ويأخذ بزمام أمور تكامله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[11] وإلاّ فالله غير عاجز عن إنزال مائدة من الطعام يومياً على عبده كما أنزلها على عيسى(ع) عندما دعى ربه بطلب الحواريين منه فنزلت المائدة السماوية وتناولوا منها، ونزلت سورة في القرآن سميت باسم .

(١١) هود: ٧، الملك: ٢.

المائدة لهذه المناسبة.

يضاف إلى هذا أنَّ الالتجاء إلى أولياء الله المقربين وطلب الشفاعة منهم، هو في حد ذاته طريق للإختبار لكي تعرف ميزانية إنسانية الإنسان، وتكبره أو عبوديته وتواضعه، كما أنَّ أمر الشيطان بالسجود لآدم كان اختباراً لكي يظهر كفره الباطني للعيان ويكشف عن أنَّه فاقد للإيمان المطلق ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[12].

وكما كانت ولاية أمير المؤمنين علي(ع) وسيلة اختبار للمسلمين لكي تتبين نسبة إيمانهم وإخلاصهم وطاعتهم وإذعانهم، وليتَّضح إيمان الذين يعتقدون بالله والنبي بصورة مطلقة ولا يقيدون إيمانهم هذا بشرط، ويمتاز الذين كان لهم إيمان مقيد بشرط كابليس، الإيمان الذي لا يعود على صاحبه بأية فائدة إلّا أنَّه يوجب له أن يصاحب إبليس في جهنم (وبئس القرين).

السبب الآخر الذي يضعف الناس في ارتباطهم بالدعاء، هو أنهم يقولون: طالما دعونا فلم نحصل على الإجابة، وهذه ذريعة أُخرى يتشبث بها الذين يرون أنَّ الدعاء ينحصر في كونه تلقيناً للنفس، فقد كان لهذه الشبهة مجال في عصر نزول القرآن وفي عهد الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام لدى أذهان الناس، وقد ذكر لها أجوبة، وجواب القرآن وبعض الروايات لذلك هو ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[13] يعني

(١٢) البقرة: ٣٤.

(١٣) البقرة: ١٨٦.

عندما يكون دعاءاً حقيقياً بتوجه إلى الله، فلو دققنا في حقيقة الدعاء والطلب من الله، لتوصلنا إلى سبب عدم إجابة الكثير من الدعوات،لأنَّ الكثير من الدعاء في واقعه ليس طلباً حقيقياً بل لا يتعدى أن يكون لقلقة لسان، وفي حالة وجود الدعاء والطلب الحقيقي من الله، فإنَّه يحتمل أن لا يكون مع الله، بل يعتمد على قدرته الذاتية والآخرين قبل أن يعتمد على الله، وواضح أن هذه الحالات لا يصدق عليها اسم الدعاء والطلب من الله.

الملاحظة الأخرى التي يجب الانتباه إليها هي أنه لو صدق الإنسان في دعائه الله تعالى فإنَّه يجب أن يتوافق مع إرادته، ولو لم يمكنه تشخيص ما إذا كان موافقاً أو مخالفاً لإرادته تعالى، فيجب أن يجعل طلبه ودعاءه مشروطاً بموافقة لإراداة وحكمة الله تعالى.

وكذلك فإنَّ في كثيرٍ من الأوقات يطلب الإنسان من الله شيئاً ما لغرض لديه، وهو صادق في طلبه وفي هدفه من الطلب، ولكنه يغفل عن أنَّ هدفه لا يترتب على إعطاء الله هذا الطلب له. وما أغلب ما يكون المطلوب من الله يحمل لصاحبه الضرر أكثر من النفع، وفي هذه الأحوال فإنَّ الله يلبي طلبه الحقيقي عن طريق آخر يراه الله صالحاً. فمثلاً يطلب الإنسان من الله مالاً لينفقه في سبيل الله ويحصل على الثواب الأخروي، ولكنه يغفل عن أنَّ هذا المال يسبب له المشاكل والمتاعب الدنيوية والأخروية ويحرمه من ثوابه الأخروي، ففي هذه الحالة يفتح الله له طريقاً آخر ليحصل على الثواب الأخروي الذي يقصده، والواقع فإنَّ

دعاءه القلبي يستجاب، ولكن دعائه اللفظي لا يستجاب.

والواقع أنَّ الدعاء الحقيقي لا يترك بدون جواب لدى الله، فإمَّا بالشكل المطلوب أو بشكل آخر، وحتى أنَّه يستجاب بعكس الطريقة المطلوبة لأنَّ المطلوب الحقيقي للداعي يتحقق عن هذا الطريق.

المحاضرة الثامنة والعشرون

من أجل أن تبقى النتائج التي حصلنا عليها في البحوث السابقة بصورة سلسلة من المواضيع المترابطة في الذهن، فسنعيد مختصراً لجميعها، بصورة مضغوطة وننهي بها هذه المجموعة من البحوث.

إنَّ الإنسان موجود خُلق في هذا العالم لكي يَطوي مسيرته التكاملية، ويصل إلى الهدف النهائي الذي هو تكامل الإنسانية.

وإنَّ الكمال النهائي للإنسان هو حقيقة تتحقق من خلال أفعاله الإختيارية.

ومن أجل الوصول إلى ذلك يجب السير بخطوات إرادية واختيارية في طريق التكامل، وكلما كان مسير الإنسان بعيداً عن الإرادة والإختيار، فإنَّه لن يؤثر ذلك في سعادته أو شقائه الحقيقي بصورة مباشرة.

وإنَّ كل ما يتعلق بحياة الإنسان هو وسيلة وأداة توجد من خلالها الأرضيات المختلفة، لكي يختار الإنسان - بنفسه - النشاط والأعمال الإرادية، ويفتح الطريق أمام الرقي والتكامل أو التدني والإنحطاط

بذلـك، وإنَّ كل واحـد منها ـ سواء كان مرغوباً فيه ومريحاً أو مزعجاً ومتعباً ـ فإنَّه لا يحمل أصالة في نفسه، ولا يناسب أن يتعلق الإنسان بها قلبياً، أو أن يجعل من نفسه فرداً كئيباً بسببها.

ولهذا فلا يجب أن يفرح الإنسان ويأنس للمبشِّرات الدنيوية، وكذلك أن لا تبعث المتاعب والمصاعب لأن يبتئس الإنسان ويجعل من حياته مأتماً وييأس من الحياة ﴿لِكَيْ لا تَأْسَوْا عَلىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

فقد طرح هذا الموضوع في القرآن بحيث يبين أن متعلقات الحياة الدنيا هي وسائل لتفتح الاستعدادات أو القابليات الكامنة عن طريق الأفعال الاختيارية. وعلى ذلك نستطيع القول بأنَّ الحياة الدنيا في مبدأ القرآن هي (مختبر) وميدان للتربية، يتم اختبار الناس فيها عن طريق سعيهم ونشاطهم، يقومون هم بتنمية قابلياتهم الذاتية لتظهر إلى الواقع وتنزل إلى الواقع العملي، لنتأمل في هذه الآيات:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُم فِتْنَةٌ﴾[2].

﴿وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ وَالخَيْرِ﴾[3].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَىٰ الأَرْضِ زِينَةً لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

(١) الحديد: ٢٣.

(٢) الأنفال: ٢٨.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

عَمَلاً﴾[٤].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيْمَا آتَاكُمْ﴾[٥].

ومن البديهي أن سلوك أي طريق، والوصول إلى الهدف لذلك الطريق، منوط بمعرفة الهدف وطريقه الصحيح، لذلك فيجب على الإنسان أن يعرف الهدف الأصلي من الخلقة وكماله النهائي، وكذلك يجب أن يعين الطريق الصحيح المؤدي إلى الهدف، وأن يختاره بالإرادة الكاملة، وأن يبذل كل ما بوسعه لكي ينال سعادته الأبدية.

إذن فالمعرفة والوعي قرينة حياتية لا يمكن التخلي عنها (معرفة الهدف، وطريق الوصول إليه، والإمكانات اللازمة لذلك) ولو لم تكن محاولات ونشاطات الحياة مرتكزة على أساس المعرفة والوعي، فلا يمكن اعتبارها محاولات إنسانية، لأنَّ الفرق الأساسي في الحياة الإنسانية مع الحيوانية، هو أنَّ الحياة الحيوانية تتوجه بدافع من الشهوات والميول الغريزية العمياء، ولكن الأعمال الإنسانية تقوم على أساس الوعي والرؤية العقلانية. وإنَّ الذين لا يستخدمون بصيرة العقل ومواهبه، وتكون دوافعهم في الحياة الغرائز والعواطف فقط، هم في الحقيقة حسب نص القرآن أرذل من الحيوانات ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الغَافِلُوْنَ﴾[٦].

(٤) الكهف: ٧.

(٥) الأنعام: ١٦٥.

(٦) الأعراف: ١٧٩.

بلى، إنَّ الغفلة عن هدف الخلقة وعن الطريق الصحيح للحياة تجعل الإنسان أردئ من مستوى الحيوانات، بل أضل من كل مخلوق ﴿إِنَّ شَرَّ الدَوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِيْنَ لا يَعْقِلُوْنَ﴾[7].

فالإنسان يدرك بسهولة من خلال نور العقل أنَّ نظام الخلقة لم يأت عبثاً، بل إنَّ خالقاً حكيماً خلقه بهذه الدقَّة والكمال، وهو الذي يديره و يدبره، وكذلك خلقة الإنسان فإنَّها لم تكن عبثاً ولهواً، وقد اتُّخذ من أجل هدف رفيع ومحكم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثَاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُوْنَ﴾[8].

بلى، فإن لم يكن هناك رجوع إلى الله في حياة خالدة، فإنَّ الحياة في هذه الدنيا ستكون عبثاً وخاوية ولا تحوي أيَّة فائدة كما يتصور الماديون.

وكذلك فإنَّ العقل يدرك بعض المسائل العامة من الحياة، ولكنه بسبب محدوديته لا يتمكن من وضع برنامج حياتي متكامل ويحوي جميع الجوانب، بحيث يسد جميع متطلبات الإنسان الفردية والإجتماعية، المادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية. وهذا ما يدركه كل عاقل ومنصف بعد التوجُّه إلى الاختلافات في نظريات عقلاء العالم في المسائل المختلفة للفرد والمجتمع، والتغيرات الحاصلة للشخص الواحد في آرائه.

وإنَّ حكمة الله الذي خلق الإنسان من أجل هدف غالٍ تقضي

(7) الأنفال: 22.

(8) المؤمنون: 115.

بأن يهديه إلى طريق صحيح، ولا يمكن أن يكون ذلك إلّا بطريق الوحي.

ثلاثة أصول يتكوّن منها أساس النظرة الدينية.

«التوحيد» و«النبوة» و«المعاد».

ومن البديهي أنّ الله لا يوحي لجميع الناس بوحيه، ولا يتمكن الجميع من استقبال الوحي وإدراكه، بل إنّ الأنبياء ـ وحدهم ـ يستقبلون الوحي بصورة مباشرة وينقلونه إلى الآخرين، فعلى الناس أن يتعرّفوا على الأنبياء ويتبعوهم في الحياة.

وواضح أنّ ادعاء النبوة لا يمكن أن يقبل بدون دليل، ولابد من وجود دليل ليقنع الناس ويتم عليهم الحجة ﴿مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلْنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَةٌ بَعْدَ الرُسُلِ﴾[٩].

فكم من مشعوذ وشيطان ادّعى النبوة، بأشكال مختلفة، وادّعى مشاهدة الملائكة وسماع الوحي الإلهي. أو فسّروا النبوّة بأنها نوع من لنبوغ، وعرفوا أنفسهم بأنّهم من النوابغ، وبالتالي من الأنبياء، وأتبعهم قوم من الجهلة والمغرضين في ذلك.

فالذي يكون حجة قاطعة وبرهاناً ساطعاً على النبوة هو المعجزة أي العلامة والدليل من قبل الله بحيث يعجز الآخرون عن الإتيان بها.

وبعبارة أُخرى: فالذي يدّعي أنّه يوحى إليه، يجب أن يتمتع بقدرة إلهية على القيام بأعمال يعجز الآدميون عنها، وتكون قدرته فوق طاقة

(٩) النساء: ١٦٥.

الأمور الطبيعية.

فالنبي الـذي لم تثبت لدى الناس نبوته، يجب أن يمتلك قدرة تحكم جميع القوى الطبيعية، ويتمكن من عمل لا يتسنى لأحد إلّا بإرادة الله تعـالى، مثل إحياء الموتى، وشفاء المرضى، وغير ذلك من الأعمال خارقـة العـادة، من غير اللجـوء إلى الطرق والأساليب المختلفة إلّا الاعتماد على القدرة والإرادة الإلهية، لكي تكون قدرته الإلهية دليلًا على علمه ووحيه الإلهي.

فلا يوجد في زماننا من له مثل هذا الدليل، ولكن كتاباً في أيدينا يدعي أنه آية ودليل آخر الأنبياء، ويعتبر معجزته في أن لو اجتمع الإنس والجن وتعاونوا معاً على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرَاً﴾[10].

ويشهـد التـاريخ أنَّ ألفـاً وأربعـمائـة سنة مرّت على نزول هذا الكتاب، ومع وجود الدواعي العديدة من أجل محو هذا الكتاب، وإطفاء ندائه الداعي للمنازلة، فلم يأت أحد بسطر واحد من مثله. وبناءاً على وعد القرآن المسبق فإنَّ ذلك لن يتم لأحدٍ أبداً ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

(١٠) الإسراء: ٨٨.

وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْن﴾[11].

وذلك دليل يقنع كل شخص منصف بأنَّ هذا القرآن ليس إنتاج شخص أُمّي من مجتمع منحط ومتخلّف مثل الحجاز قبل ألف وأربعمائة عام، وأنَّه وحي إلهي قطعاً.

يدَّعي هذا الكتاب أنَّه يوفر جميع متطلبات البشر من أجل معرفة الهدف والطريق المؤدّي إليه، بعضها بصورة مباشرة والبعض الآخر عن طريق بيان النبي(ص) ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[12].

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[13].

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[14].

فبناءاً على هذا الأساس تكون توضيحات النبي(ص) حول الآيات وتفاصيل الأحكام حجَّة وغير قابلة للرد والإنكار، وبهذا نعرف أنَّ الدليل الثاني على معرفة أحكام وحقائق هذا الدين، هي سنة الرسول(ص).

وبالاستناد إلى عديد من الآيات والروايات القاطعة عن النبي(ص) فإنَّ أحاديث أهل البيت (الأئمة الاثنى عشر للشيعة) كذلك

(١١) البقرة: ٢٣-٢٤.

(١٢) النحل: ٤٤.

(١٣) الجمعة: ٢.

(١٤) النساء: ٨٠.

حجة مثل أحاديث النبي الأكرم(ص)، وإنَّ عترته تعادل القرآن وتساويه، والواقع هي القرآن الناطق والمجسد *«إنّي تارِكٌ فيكُم الثقلين كتابَ الله و عترتي»*[١٥].

وكما قال أمير المؤمنين(ع) *«أنا كتابُ الله الناطقُ»*[١٦].

فما يعتبر حجة بيننا وبين الله. والذي يجب أن نتمسك به دائماً، وأن نأخذ مسيرتنا في الحياة منه، هو كتاب الله وسنة الرسول(ص) والأئمة المعصومين(ع)، ومن يختار طريقاً آخر فإنَّه سيفقد الحجة ولن يسلم من الانحراف والخطأ.

يؤكد القرآن مراراً على أنَّ منشأ الإنحراف والضياع للناس هو اتِّباع الظن والآراء الشخصية والأهواء النفسية، أو تقليد الآباء والأقربين أو المتجبرين والمتمكنين أو أكثرية الناس، والقرآن يرفض منطق المشركين والكفار القائم على أساس التقليد الأعمى **﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾**[١٧].

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الأَنْفُسُ﴾[١٨].

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[١٩].

(١٥) حديث الثقلين.

(١٦) (ن.م).

(١٧) المائدة: ١٠٤.

(١٨) النجم: ٢٣.

(١٩) الأنعام: ١١٦.

لنــر الآن ما هو نظر القرآن حول الكمال النهائي للإنسان والذي يعتبر الوصول إليه هو هدف خلقة الإنسان، وما هو الصراط المستقيم في منطق القرآن.

فالقـرآن الشريف يعتبر أنَّ أعلى مراحل كمال الإنسان هو مقام شامخ لا يتيسر إدراك حقيقته للأشخاص العاديين، كما أنَّ الجنين في بطن أُمِّه لا يستطيع إدراك الحياة بعد الموت، وبعد الخروج من بطن أُمِّه، وإنَّ الطفل الذي لم يبلغ بعد لا يستطيع تذوّق لذائذ الإنسان البالغ.

ولكن يمكن لنا الإشارة إلى تعبيرات لذلك من قبيل (القرب من الله) و(جوار الخالق) و(اللقاء الإلهي).

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[٢٠].

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٢١].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾[٢٢].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاظِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢٣].

ونشـير إلى اللذائـذ المقـارنـة لذلـك المقام والمنزلة بعبارات مثل ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[٢٤].

(٢٠) ص: ٢٥و٤٠.

(٢١) القمر: ٥٥.

(٢٢) الكهف: ١١٠.

(٢٣) القيامة: ٢٣.

(٢٤) التوبة: ٧٢.

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢٥].

﴿فِيْهَا مَا تَشْتَهِيْهِ الأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[٢٦].

كما أنَّ النعم التي يحصل عليها عباد الله المستحقون للجنة قد ذكرت في القرآن بصورة تفصيلية، خاصة في سورة الرحمن والواقعة، وقد أكَّد على أنَّ هذه النعم خالدة لا نهاية لها، كما أنَّ عذاب الكفار خالد وأبدي.

وأما الطريق الأصيل الذي يجب السلوك فيه من أجل الوصول إلى الهدف فهو العبودية لله ﴿وَأَنِ اعْبُدُوْنِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيْمٌ﴾[٢٧].

فلو أراد الإنسان أن يصل إلى تلك المنزلة، لوجب عليه أن يتَّخذ من العبودية لله أداة لذلك، وأن لا ينحرف عن طاعتّه أبداً. وإنَّ العبودية تبدأ من القلب وتسري إلى أعضاء وجوارح البدن، وتشمل بالتدريج جميع شؤون الحياة.

وإنَّ كل عمل يؤديه الإنسان مطابقاً لأصول الدين، ومن أجل مرضاة الله، فإنَّه سيدخل ضمن العبودية لله، وإنَّ العبد المخلص لله هو من يجند جميع طاقاته من أجل عبودية الله وطاعته، وأن يحصر جميع أفكاره في العبادة، وأن لا يكون له دافع إلاّ مرضاة الله، ولا يسلك طريقاً إلاّ طريق الأنبياء، وأن لا يطلب شيئاً إلاّ من ساحة الله، وأن لا يعتمد إلاّ على ذاته

(٢٥) السجدة: ١٧.

(٢٦) الزخرف: ٧١.

(٢٧) يس: ٦١.

المقدسة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونَ﴾[٢٨].

وبما أنَّ الحياة الدنيا لها متطلَّبات تستقطب توجه القلب ـ شئنا ذلك أم أبينا ـ وأنَّها تمنع الإنسان من أن يستغرق دائماً في ذكر الله، فقد أقرَّ الإسلام كباقي الأديان السماوية واجبات بعنوان العبادة، وبالمعنى الخاص، لكي يصرف كل فرد بعضاً من وقته في أدائها، ويفرغ نفسه في هذه الأوقات من بعض الأعمال والمشاغل والافكار، ويفرغ منزل القلب من الأغيار، ويتفرغ إلى العبادة والأنس والدعاء والمناجاة مع معبوده.

قسم من هذه الأعمال يأخذ طابع المناهج الواجبة العامة للجميع، والقسم الآخر بشكل مستحبات ومندوبات، لكي يقوم من يريد التكامل الأكثر بأدائها في الأوقات التي يتفرغ فيها عن أداء الواجبات، وإنَّ كثيراً من المستحبات تأخذ شكل وآداب الأعمال الواجبة والتي لا تتطلب وقتاً طويلاً.

وما نريده هو الإنتباه إلى أنَّ الإنسان يؤدي عمله في هذه الصورة إرضاءً لله تعالى، مثل تناول الطعام باليد اليمنى، والجلوس والنوم صوب القبلة وغير ذلك.

إنَّ أهم المناهج العبادية في الإسلام هي الصلاة، والتي تعتبر عمود الدين، وشرطاً لقبول بقية الأعمال والعبادات، والواقع أنَّ الصلاة تحفظ روح العبادة في الحياة، وتلقن الهدف والطريق الصحيح ـ للعبادة ـ

(٢٨) الذاريات: ٥٦.

للإنســان، وتمنـع الإنسان من أن يغفل عن ربه بسبب المشاغل الحياتية واللذائذ والمنغصات اليومية.

وكلما أُقيمت الصلاة بصورة أحسن وأكمل، وكلما كانت بحضور القلب وتـوجهـه والخضوع والخشوع الأكثر، فإنَّها تكون أكثر تأثيراً في سعادة الإنسان والنتائج المتوخَّاة منها تكون أفضل ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُوْنَ﴾[٢٩].

إنَّ عبـد الله ـ كما قلنـا سابقـاً ـ عليه أن يعتـبر الله منبـع جميع القدرات والقوى، ولهذا فإنَّه لا يخاف ولا يؤمل إلَّا الله، ويعتمد ويتوكل عليه فقط، ولا يطلب سد احتياجـاته المادية والمعنوية إلَّا منه، ولا يدعو أحـداً في عسره ويسره وخوفه وأمله في صباحه ومسائه إلَّا الله ﴿أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعَاً وَخُفْيَةً﴾[٣٠].

عبـد الله هذا يتـواضـع ويتخضـع لأولياء الله، تعبيرا للخضوع ومنتهى التصـاغـر أمام الله ، وكذلك طلبه لمحو الذنوب وقضاء الحوائج ببركة دعائهم من الله.

يستيقظ من النـوم صبـاحـاً على ذكـر الله، ويضع رأسه على الوسادة ليلًا وهو ذاكر لله ﴿يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَدْوَةِ وَالعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ﴾[٣١].

(٢٩) المؤمنون: ١ـ٢.

(٣٠) الأعراف: ٥٥.

(٣١) الأنعام: ٥٢، الكهف: ٢٨.

ولا ينسى الله في نشاطاته وأعماله اليومية أبداً ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[٣٢].

يشغـل قسـماً من الليل بالدعاء والذكر والمناجاة وتلاوة الكتاب ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوْبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ﴾[٣٣].

والخـلاصـة: إن نشاطه وسكونه، نطقه وسكوته، عشرته وخلوته، أعماله الفردية والإجتماعية، النوم واليقظة، وحياته وموته هي كلها لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِيْ وَنُسُكِيْ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيْ لله رَبِّ العَالَمِيْنْ﴾[٣٤].

(٣٢) النور: ٣٧.

(٣٣) السجدة: ١٦.

(٣٤) الأنعام: ١٦٢.

فهرس الموضوعات